الدكتور عارف تامر

نصير الدين الطوسي في مرابع ابن سينا

عز الدين
للطباعة والنشر

نصير الدين الطوسي
في مرابع
ابن سينا

نصير الدين الطوسي في مرابع ابن سينا

تأليف

الدكتور عارف تامر

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦ - ٢٧٥٥٣٢ - ٢٧٥٥٦٣ - ٢٧٥٨٦٧ - ص.ب: ١١٥٠٢٥/١٣ بيروت - لبنان

هذا الكتاب:

الكتابة عن «نصير الدين الطوسي» شيّقة ومفيدة، وخاصة في هذه الفترة التي اتخذ بعض المؤرخين والباحثين والدارسين من سيرة حياة هـذا الفيلسوف، ومن فلسفتـه، وعقيدتـه، ومدرسته الفكرية مادة دسمة لبحوثهم ومقالاتهم وكتبهم.

وكـالعـادة بـالنسبـة للمـواضيـع الاسـلاميـة، وخـاصـة «الاسماعيلية»، فإن الاقوال تتعدد، والمباحث تتشعب وتتجزأ، والخيال والاستنتاج يلقيان بظلهما وثقلهما على المواقع والمواقف فيحجبان النور عن الانظار، ويبعدان الحقيقة عن العيان.

إن المرض العضال الذي طالما شكونا منه بالامس، والذي مازلنا نشكو منه اليوم ما زال وبكـل اسف ينمو ويترعرع، وينخر عظامنا، وينفث سمومه في نفوسنا... هذا المرض الوبيل ما انفك يأخذ الصدارة بحربه، ويتمثل في اعتماد البـاحثين المعـاصرين الـذين يكتبـون تـاريـخ رجـال الفكر

الاسلاميين الأوائل، على كل ما دوّنه وسجّله المؤرخون القدامى من اخبار وروايات ليست بمجموعها اذا ما أردنا ان نعطيها حقها من الوصف الاّ مجموعات وهمية من الخرافات والاساطير الخارجة عن نطاق العقل.... ومن المؤسف حقاً انها القيت وتركت مشاعاً بين ايدي الناس دون جلاء او تفسير، فجاء المعاصرون من الباحثين واخذوها على علاتها، دون ان يكلفوا انفسهم عناء دراستها، او تحليل اسبابها ودوافعها... وهكذا اجبرونا على العودة إلى نقطة البداية، لندور في حلقتها المفرغة... نفتش عن الحقيقة الضائعة في طيّات الازمنة فلا نجدها، ونسأل، ونرفع صوتنا عالياً بالنداء.... ولكن لا حياة لمن تنادي.... وحبذا لو ان الله وهبنا القليل من الوعي والحكمة والتجرد، وأزال من نفوسنا الرواسب الكثيفة المتسربة من ظلمات القرون السالفة.... اذن لعثرنا على الدليل الذي يقودنا إلى الهدف، ولاجتزنا المصاعب والعثرات التي كثيراً ما تعوق سبيلنا وتمنعنا من الوصول إلى عالم الخير والمعرفة والجمال.

قلنا:

ان دراسة «نصير الدين الطوسي» والتعريف عنه، يجب ان تأخذ جانباً كبيراً من اهتمامنا وتفكيرنا واجتهادنا. فهذا الفيلسوف العربي الكبير تنازعنا عليه دول اخرى، وتحاول ان تنسبه اليها، بعد ان تحققت من تفوقه وشهرته وبروزه على مسرح «العالمية».... هذا الفيلسوف وبكل اسف لم ينصفه

التاريخ. ولّما يستطع حتى الآن تحديد دوره السياسي والعلمي، واظهاره على حقيقته، أو إعطائه ما يستحقه من التقدير، ممّا يجعلنا نتوقف قليلاً ونحن في صدد التحدث عنه، فلا نعرف كيف يجب ان نبدأ، ومن اين؟ فهناك جوانب كثيرة من حياته يكتنفها الظلام، ويلقي الغموض بثقله عليها، وهناك فترات زمنية من عصره اغفلها أو تغافل عنها التاريخ، وهناك نواحٍ في فلسفته ما زالت مجهولة وبعيدة عن الاحاطة والفهم والادراك. أمّا القضايا المطروحة على بساط البحث فأكثرها لا تمثل الحقيقة التي ننشدها، ويكاد العقل المدرك يكفر بها، ويتخذ منها مادة للهزء وللسخرية.

كلنا يعلم:

ان هذا الفيلسوف الكبير نشأ وتثقف في مدرسة ابتدائية لم يستطع احد من الباحثين تحديد هويتها وواقعها ومبادىء القائمين عليها.

وكلنا يعلم:

ان نصير الدين بعد اكمال دراسته لجأ إلى قلعة «ألموت» عاصمة الدولة الاسماعيلية النزارية في بلاد فارس، وكان قد عبر اليها من قهستان بواسطة حاكمها الاسماعيلي «ناصر الدين»، فعاش فيها قرابة ثلاثين عاماً، منقطعاً للتدريس، وللتأليف، والاضطلاع بالمهمات العلمية، والسياسية العليا.

اذن. . . علينا ان ننطلق من هذه النقطة. . . بل علينا ان نعود إلى مدرسته الأولى، لنعبر منها إلى حياتـه وواقعه. . . فدراسة نصير الدين في رأينا تكون عقيمة وناقصة إذا لم ترتكز على دراسة العصر الذي عاش فيه، وعلى البيئة التي طبعته بطابعها، ويدخل في هذا النطاق المدرسة التي تلقى فيها علومه الاولية، وبعدها مرحلة فتوته وشبابه، وآخـرها الـدولة التي عاش في كنفها، وشارك في قيامها ونهضتها وازدهارها. وقبل ان نفعل، علينا ان نضع في حسابنا الصعوبات والعثرات التي تبرز امامنا بسبب فقدان المصـادر التاريخيـة عن تلك الفترة الزمنية الطويلة من تاريخ الاسماعيلين، فالحروب والغزوات واجتياح المغول للبـلاد الاسلاميـة، لم تبق لنا من المصـادر والمراجع ما يروي الغليل، او ينير السبيل، خاصة بعيد اجتياح المغول للقلاع الاسماعيلية، وإحراق المكتبة الاسمـاعيلية في «ألموت» ذات المليون والنصف مجلد.

وهكذا. . . فإن الاحتفاظ ببضعة صفحات منسيَّة ظلَّت في طيَّات الازمنة، وتحت كنف السِّرية والتقيَّة. . . فهي كل ما بقي لنا في المكتبات الخاصة السرِّية لدى الاسماعيليين في بلاد الشام. . . وهي التي يجب الاعتماد عليها، وهذا ما فعلناه. . . ولعلها تلقي الاضواء، وتنير الجوانب الغامضة.

انه لمن المؤسف حقـاً. . . اننا حتى الآن لم نستطع تحديد هـوية فـلاسفتنا واعـلامنـا ـ وبعض رجـال الفكـر العـرب

والاسلام... وانه لمن المؤلم... ان تصبح هذه الامور في عصرنا الحاضر مدار جدل ونقاش عقيم، يختلط فيه الخطأ بالصواب، ويضيع في طياته الواقع المنشود. وامام هذا الواقع المرير، وفي كل مرة نخوض فيها معركة الحقيقة، لا نجد في يدنا سوى الايمان والتحرر وعدم الالتزام كسلاح نخوض فيه المعركة القاسية... وعندما نخوض الغمار نشعر بالمرارة والاسف لهذا التردي الفكري الذي يسيطر على اجوائنا الادبية، ويلزمنا في سلوك الدروب الضيقة رغمًا عنّا.

ان كل ما نتمناه، ونتوخاه ان لا نتهم بالتزمت والتعصب والانحياز، وان يساعدنا الله ويمكننا من إعطاء صورة صحيحة عن «نصير الدين الطوسي»، وعن عصره السياسي، وعن الدور المهم الذي مثله على مسرح هذا العالم الاسلامي في فترة مصيرية من تاريخ العرب والاسلام.... وكل هذا يلزمنا بالعودة إلى ما قبل العصر الذي عاش فيه، معتبرين اننا بذلك نوطد الأركان، ونضع الدعائم الثابتة للموضوع الذي نحن في صدد التحدث عنه.

الدولة الفاطمية
في
أيامها الاخيرة

يعتبر الخليفة الفاطمي الثامن «المستنصر بالله» آخر خليفة فاطمي «شرعي» تولىّ الحكم في الديار المصرية. فبعد وفاته انقسمت الدولة الفاطمية الرسمية إلى دولتين: هما... «النزارية» في «ألموت» بفارس، و«المستعلية» التي ظلّت قائمة في مصر. وإلى فرقتين دينيتين متصارعتين هما: ـ النزارية وموطنها بلاد الشام والعراق وفارس، ومستعلية وموطنها اليمن.

فالنزارية هي التي تنتسب إلى «نزار» الابن الاكبر للخليفة الفاطمي الامام «المستنصر بالله» وهي التي أقامت دولتها في «ألموت» بفارس بتخطيط من «حسن الصبّاح» وأخرى في «مصياف» في بلاد الشام بزعامة «راشد الدين سنان».

امّا المستعلية فهي التي تنتسب إلى «المستعلي» الابن الاصغر للخليفة الامام المستنصر بالله الفاطمي، والأخ الاصغر لنزار من ابيه، وهي التي استمرّت فترة أخرى في مصر، امتدت حتى وقت استيلاء صلاح الدين الأيوبي على مقدراتها، وعند ذلك تحوّلت دعوتها وفلولها إلى اليمن، وعاشت في هذا الوطن

بعزلة تامة دون ان تستطيع إقامة أية دولة، أو أي كيان سياسي.

لقد قلنا:

ان للدول، وللممالك اعماراً محدودة كما للانسان، وكلما زاد أو نقص من هذا العمر فلعلل وأسباب... ومن الواضح: ان الدولة - اية دولة - تبدأ صغيرة ثم تنمو وتشب وتترعرع، ثم تعبر مرحلة الشباب، وتمضي في سبيلها، وتظل في سيرها إلى ان تصل إلى حافة الشيخوخة... حيث الوهن والانهيار... وأخيراً النهاية.

فالدولة الفاطمية التي نتحدث عنها، وصلت في عهد المستنصر بالله الخليفة الفاطمي الثامن إلى ذروة العز والمجد والرفعة، بحيث امتدت رقعتها إلى اماكن بعيدة لم تكن تغيب عنها الشمس... وعندما نعلم ان اعلامها رفرفت ولمدة عام على بغداد العباسية! يتجلىَّ لنا ان هذا الامتداد لم يكن سوى بداية النهاية أو خاتمة المطاف... إذ انه لم يكد يغيب المستنصر بالله عن هذا العالم حتى عصفت بالدولة الفاطمية العواصف، فامتدت إلى حرمها الايدي الدخيلة الغريبة، فأحكمت أطباق مخططها عليها، وما زالت تعبث بكيانها ومقدراتها حتى جعلتها طعمًا لنيران المشاحنات والحروب والثورات... ممّا ادىً أخيراً إلى انهيارها وسقوطها. وقد تكون الاسباب عديدة، والعوامل مختلفة، وقد يكون اهمها ما سوف نوجزه.

من الواضح:

ان الخليفة الفاطمي الثامن المستنصر بالله ولد في القاهرة «المعزّية» سنة ٤٢٠ هـ، وانه بويع بالخلافة سنة ٤٢٧ هـ. أي بعد وفاة والده الخليفة السابع «الظاهر لاعزاز دين الله» مباشرةً، وكان له من العمر سبعة أعوام، وفي هذا السن المبكر كان على والـدته النشيـطة المتيقظة ان تتسلّم شؤون الحكم بالنيابة عن ابنها الصغير، وبالفعل تمّ لها ذلـك بنجاح، وظلّت قائمة بالامر حتى كبر ابنها - وترعرع، وأصبح في عمر يؤهله لتسلم شؤون الدولة، وعندئذٍ تخلّت له عن المهمة، فاستمرّ بالحكم حتى يوم وفاته سنة ٤٨٧ هـ... أي انه حكم مصر مدة ستين عاماً، ومات وله من العمر سبعة وستـين سنة، ويعتبر عهده من أطول العهود في تاريخ الخلافة الاسلامية.

ومهما يكن من أمر... فإن الحديث عن الخليفة الفاطمي الثـامن المستنصـر بـالله، وعن عهـده اعم من ان تفي بـه الصفحات، وأوسع من ان يغطيه وصف الاحداث المفاجـآت والفتوحات التي وقعت في خلال مدة حياته، وكل هذا بجملته يشكل ناحية مهمة من تاريخ الدولة الفاطمية. ولكن بالنسبة لنا، فإن ما يهمنا هو التطلع إلى الناحية التي تتصل بموضوعنا.

ففي فترة من فترات عهد المستنصر بالله، ساءت الاحوال العـامـة في مصـر، فتبعـثر الجيش، وتـأصلت الفتن، وعمّ الفساد، وانتشر الفقر والجوع، ونقص منسوب مياه النيـل،

وانعدمت المواسم، وقلت المواد الغذائية، واستحال على الخليفة إيجاد رجل قوي يستطيع ان يقبض على زمام الامور، ويدير دفة الحكم بصدق واقدام... وجاءت أخيراً قبيلة «لواته» المغربية فتملكت ريف مصر، وعبثت فيه، وقابلها العبيد الذين استولوا على الصعيد.

في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الدولة الفاطمية... كان على الخليفة المستنصر ان يستدعي احد الرجال الاقوياء، ليحمله مسؤولية انقاذ البلاد ممّا هي عليه... وكان الوزير الاول «اليازوري» في تلك المدة يقضي ايامه الاخيرة في السجن بتهمة الخيانة العظمى التي انتهت بإعدامه سنة ٤٥٠ هـ.

فوقع الاختيار بعد ذلك على «بدر الجمالي»... وكان والياً على عكا من قبل الفاطميين.... والجمالي كما هو معروف عنه ينتمي إلى اسرة «ارمنية» وكان مملوكاً «لجمال الدولة بن عمّار» وقد تربّى عنده، واشتهر منذ صغره بالرجولة والحزم وبعد النظر، فانتسب إلى الدولة، وأخذ يتنقل في المناصب ـ حتى ولي الشام، ثم تقلّد بعد ذلك امارة دمشق مرتين إلى حين ثار أهلها عليه، فنقل إلى عكّا وظلّ فيها حتى تاريخ استدعائه من قبل الخليفة المستنصر بالله.

بعد وصول الجمالي إلى القاهرة... ولدى مقابلته للخليفة، تسلّم منصب الوزارة الأولى بالاضافة إلى قيادة الجيش

العامة. . . فتمكن في فترة قصيرة من إصلاح الامور، وفرض سلطة الدولة، وإعادة الامور إلى طبيعتها. . . وهنا كافأه الخليفة المستنصر بالله بأن اسند إليه وظيفة «داعي الدعاة» و «قاضي القضاة»، وأعطاه لقب «وزير السيف والقلم» بالرغم من انه كان أرمنياً، ولم تؤكد المصادر انه اعتنق الاسلام.

ولم يكتفِ الخليفة المستنصر بالله بذلك، بل تزوج ابنته سنة ٤٦٦ هـ. فرزق من هذا الزواج بعد عام بولدٍ سمّاه «المستعلي»، ومن الجدير بالذكر ان الجمالي ظلّ في الحكم حتى وفاته سنة ٤٨٧ هـ وعندئذٍ عيّن المستنصر بالله ولده «الافضل» مكانه، ومنحه نفس الصلاحيات التي كانت ممنوحة لوالده. وتشاء الظروف ان يموت المستنصر بالله في نفس العام أي سنة ٤٨٧ هـ. وعندئذٍ هبّت رياح الفتنة لتعصف بالدولة الفاطمية الكبرى، ووقعت الكارثة التي أدّت إلى سقوطها وانهيارها كما سنذكر في الصفحات التالية.

الفتنة الكبرى:

غير خافٍ على الباحثين والمهتمين. . . بأن «ولاية عهد الامامة» تشكل أهم ناحية في العقائد الاسماعيلية، فقد حددت قوانين هذه الدعوة مهمات هذه الولاية وصلاحياتها بالنسبة للدنيا وللدين. فأوجبت على الخليفة أو الامام عدم اهمالها، واعتبار اقامتها من الواجبات التي فرضها الله عليه. واننا نرى ان هؤلاء الأئمة كانوا في مختلف أدوارهم يعدون

أولياء العهود اعداداً دينياً وسياسياً ويفسحون لهم المجال لتولي بعض الشؤون والمهمات الكبرى في الدولة أو الدعوة، وكانوا إلى جانب ذلك يحتمون عليهم تلقي العلم على أيدي دعاة عرفوا بتفوقهم واختصاصهم في ميدان التربيـة والتعليم... فكان عليهم ان يعلموهم مختلف العلوم، ويـطلعوهم على أسـرار الدين والـدنيا، لكي يصبحـوا عند تسلمهم الحكم صالحين للزعامتين الدينية والدنيوية.

وبالإضافة إلى كل ذلك كان على الامام، أو الخليفة أن ينص على ولي العهد قبل موته على الاقل، اذا لم يكن قبل ذلك، وان يشهد على التولية اخلص الناس إليه، واقربهم منه، من رجال الدولة وكبار الدعاة.

وبالنسبة لولاية العهد في عهد الخليفة المستنصر بالله... فهذه الولاية قد تّمت لابنه الأكبر «نزار» وهذا الموضوع لا يحتاج إلى نقاش، لأنه ثابت في تاريخ الدولة الفاطمية، ومعترف عليه لدى كبار الدعاة والوزراء ورجال الدولة في ذلك العصر... فهذه التولية كما أشارت المصادر ظلّت قائمة وسارية المفعول قرابة ثلاثين عاماً، ويكفي للدلالة على صحتها بأن المستنصر بالله عندما مات كان لنزار من العمر ما يقارب الخمسين عاماً، وكان له اربعة اخوة غيره، فهل من المعقول ان يترك الخليفة هذا المنصب شاغراً طيلة هذه المدة، فلا يمنحه لأحد من أولاده الخمسة، ويظل محتفظاً به لولد لم يأتِ بعد؟ أو لمجرد رغبة

امرأة أو وزير... ثم اين نذهب بالوصية الشرعية، والنص الامامي العلني الذي اذيع في حينه على الخاصة والعامة؟

ولكنها ارادة «الافضل الجمالي» الذي كان يسميه نزار «الارمني القذر»... فهي التي تغلبت وأدَّت إلى ما أدَّت إليه، فالافضل ما كاد يعلم بوفاة الخليفة المستنصر بالله حتىً اعدَّ لعدة، وصمَّم على اقتراف الجريمة، وتنفيذ المخطط الذي يقضي بإبعاد نزار عن الخلافة مهما كانت النتائج، وقد اتخذ من نفوذه وقيادته للجيش ما يؤمن له نجاح المؤامرة.... وهكذا كان.

فما كاد المستنصر بالله يوارى الثرى حتى أعلن الافضل عن خلافة المستعلي ابن المستنصر بالله الاصغر من زوجته الارمنية شقيقة الافضل، وبهذا كفل بقاءه في منصب القيادة، وسيطرته على الخليفة المستعلي الصغير الذي كان له من العمر حينئذٍ عشرين عاماً، فردَّ نزار عليه بإعلان معاكس، ثم جمع قواته ومؤيديه واخوته الاربعة: «محمد، وعبدالله وجعفر، وداؤد» وذهب إلى الاسكندرية حيث اتخذها قاعدة لدولته الجديدة.

ولكن الافضل جرَّد حملة عسكرية كبرى، وزحف على رأسها إلى الاسكندرية حيث فرض عليها الحصار من البر والبحر.... وبعد عدة معارك تمكن من قتل افتكين قائد الجيش الموالي لنزار، وحاكم الاسكندرية، ثم قبض على نزار واخوته وعاد بهم إلى القاهرة حيث أودعهم السجن.... ومما تجدر

الاشارة إليه انه بعد فترة قتلهم جميعاً، ولم يبق على كبير أو صغير منهم، وكان ذلك سنة ٤٩٠ هـ.

بعد أن تمَّ للافضل تحقيق اهدافه ورغباته، بقي في منصبه يحكم الدولة الفاطمية من وراء ستار، لان المستعلي كما ذكر عنه كان في منصب الخلافة كرمزٍ لا شأن له، حتى انه خطر عليه التحدث إلى الناس، أو الظهور في أي مكان، وبعد موته سنة ٤٩٥ هـ، أي بعد حكم استمرَّ سبعة سنوات ونيف سمَّى الافضل ابن المستعلي الاكبر «الآمر بأحكام الله» للخلافة، وكان له من العمر خمسة سنوات، وبعد ان كبر سلَّمه المنصب، ولكن النزارية دبروا مؤامرة قتله... ومن الواضح كما أشارت المصادر انه مات دون عقب... ولكن اتباعه المستعليين يدعون ان امرأته كانت حامل عند وفاته، وانها وضعت طفلاً فيما بعد سمّي «الطيب» لم يلبث بعد ولادته ان دخل في «الستر»، ولا يزال اصحابه ينتظرون عودته.

بعد مقتل الآمر باحكام الله، سلَّم الافضل شؤون الخلافة وكالةً وبالتتابع إلى كل من «الحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد». وهؤلاء الاربعة يمتون بصلة النسب إلى الاسرة الفاطمية وفي عهد آخرهم العاضد وقع الانقلاب المعروف، إذ استولى صلاح الدين الايوبي على مقاليد الدولة الفاطمية، واعاد الخطبة للعباسيين.

امَّا الافضل فقد لاقى جزاء ما فعله قبل ذلك بان قتله أحد

الفدائيين النزاريين، وكان له من العمر سبعة وخمسون عاماً، وبعد مقتله ابيدت اسرته بمجموعها، ولم ينج منها سوى ابنه احمد الذي أصبح وزيراً فيما بعد، ثم اغتيل في نهاية المطاف.

حسن الصبّاح
ودولة
ألموت النزارية:

يعتبر الحسن بن الصبّاح من كبار دعاة الاسماعيلية، ومن اكثرهم جرأة واقداماً واطلاعاً على السياسة العامة، وهذا المفكر الكبير لعب دوراً بارزاً على مسرح الاحداث بالنسبة للدولة الفاطمية من جهة، وللعالم الاسلامي من جهة ثانية.

فهو المؤسس الفعلي لدولة ألموت النزارية الاسماعيلية، وأول من نظم «الفدائية» على اسسٍ من الفكر والعلم، وكان إلى جانب كل هذا من العلماء البارزين الذين تضلعوا بالفلسفة وعلم الفلك والرياضيات... ومما يذكر: ان له عدداً من المؤلفات منها: «فصول مباركة» و«دستور المنجمين» وغيرهما، ولكن مؤلفاته فقدت جميعها ابّان اجتياح هولاكو لقلاع الاسماعيلين، وما تبعها من احراق مكتبة «ألموت» الاسماعيلية ذات المليون مجلد.

هو:

حسن بن علي بن محمد بن جعفر بن حسن بن الصبّاح.

وينتسب إلى قبيلة «حمير» العربية اليمنية، وكانت اسرته قد هاجرت من اليمن إلى فارس في ظروف غامضة، وقد ذكر انها كانت «زيدية» العقيدة، وهناك من يقول انها من الشيعة الاثني عشرية.

ولـد الحسن سنـة ٤٠٢ هـ في الـري، وقيـل في «قم» الفارسية، وبعد ان شبَّ وترعرع انتسب إلى مدرسة «نيسابور» الذي كان يديرهـا الفيلسوف المشهـور «الموفق النيسـابوري» ويعتبر الشاعر عمر الخيام، والوزير السلجوقي نظام الملك من اعز اصدقائه ورفقاء دراسته.

بعد ان تخرَّج الحسن من مدرسة نيسابور، قام بجولة في ارجاء بلاد فـارس، وبينما هـو في اصفهان التقى بـالداعي الاسمـاعيلي المعـروف «ابو النظم» فسخره بـاسلوبه وبيـانه وبعلومه... وبعد عدة لقاءات تمكن من التأثير عليه وجذبه إلى عقيدته، ولكنه نصحه بالسفر إلى القاهرة «المعزّية» لمقابلة الخليفة المستنصر بالله، ونيل بـركاتـه وتوجيهـاته... فقبـل الفكرة، ورحب بها، ولكن قبل ذهابه اخذه «ابو النظم» إلى الداعي الاسماعيلي الأكبر «عبد الملك بن عطاش» الذي توسَّم به خيراً، فأعطاه كتاباً إلى الداعي «أبو داؤد» المصري الذي كان يقيم في القاهرة ليقوم بتسهيل مهمته بمقابلة الخليفة.

وصل الحسن بن الصبَّاح إلى مصر، وحظي بمقابلة أبو داؤد الذي أكرم وفادته... فأدخله بيت الحكمة للتزود بالمزيد من

العلوم، وقيل: انه لازم «المؤيد في الدين» هبة الله الشيرازي المعروف بداعي دعاة الدولة الفاطمية لمدة عام ونيف، وبعدها سمح له الخليفة بالمقابلة، وذكر انه باركه وأناط به مهمة رئاسة الدعوة في اقليم فارس.... فعاد إليها.... وبينما كان يقوم بمهمته في إحدى الجهات سمع بموت الخليفة المستنصر بالله، وبوقوع «الفتنة» الكبرى، فعاد إلى القاهرة وفي نيته القيام بحركة معاكسة ضد الافضل الجمالي. ولكن هذا الاخير علم بما كان بعده، فقبض عليه، وأودعه السجن ولكن اقامته لم تطل فيه، اذ تمكن من الفرار في إحدى الليالي، فتوجه إلى الاسكندرية، وهناك استقلَّ سفينة أوصلته إلى أحد موانىء بلاد الشام، ومنها توجه إلى فارس.

في فارَس لم يقف الحسن وقفة المستسلم للاحداث، فعمل على تأليف فرقة عسكرية لم تلبث ان هاجمت بقيادته قلعة «ألموت»... وبعد ان فرغ من احتلالها اعلنها عاصمة لدولته النزارية. وألموت هذه تقع في جبال «البرز» أي إلى الشمال الغربي من قزوين ويذكر التاريخ ان «الحسن الداعي إلى الحق البويهي» هو الذي أمر ببنائها سنة ٢٤٦ هـ.

وبعد فترة من الوقت، أخذ الحسن يوسع رقعة دولته، فاستولى تباعاً على قلاع: شاهدز، وليمون دره، وكردكوه، وكمشير، وميمون دز، وتون، وخوان، ولامستر، وغيرها من القلاع التي تألفت منها الدولة الاسماعيلية النزارية فيما بعد.

وبعد ان تمَّ له تحقيق هذه الانتصارات، أرسل احد دعاته السريين إلى القاهرة، وزوَّده بكتاب إلى كل من الداعيين النزاريين «حسن السعيدي» و «زاده أسد» يكلفهما فيه احضار الامام «الحسن بن نزار» ووالدته إلى «ألموت»، وكان الداعيان المذكوران يحتفظان به، ويخفيانه في مكان ما.... فاستجابا لطلب الحسن، وحضرا إلى «ألموت» ومعهما الامام الصغير البالغ من العمر تسعة سنوات.

وتذكر المصادر الاسماعيلية:

ان الحسن بن الصبَّاح سلمه إلى الدعاة «كيابزرك أميد» و «المظفر»، و «الحسين القائيني» وأناط بهم رعايته والاشراف على تربيته وتثقيفه، وكان قبل ذلك قد أعلن عن وصول الامام الحسن إلى ألموت، ودعا كبار الدعاة والناس إلى مبايعته... وممّا تجدر الاشارة إليه ظلَّ الحاكم الفعلي للدولة النزارية لمدة خمسة وثلاثين عاماً، إلى حين وفاته سنة ٥١٨ هـ.

بعد هذا العرض الذي لم يكن هناك بدأ منه.... اتوقف لأناقش موضوعاً مهمًا له أهميته بالنسبة للدراسات الاسماعيلية، ولما نحن في صدده.

فالمستعليون الحاقدون على نزار، وعلى كل ما يتفرع من النزارية، اعلنوا وسجلوا في كتبهم وتواريخهم، بأن الحسن بن نزار المذكور الذي اقامه الحسن بن الصبَّاح في ألموت لم يكن بالفعل سوى احد اولاد الحسن بن الصبَّاح.... ودللوا على

زعمهم بأن الافضل الجمالي أباد اسرة نزار بأجمعها ولم يبق على احد منها.

ولكن هذا الزعم اعتبرته النزارية باطلاً ومرفوضاً من اساسه، لأنه صادر عن الفريق المعادي... وقالوا: انه من المستحيل ان تمرَّ مثل هذه اللعبة على الدعاة الاسماعيليين النزاريين... وفيهم الفيلسوف، والعالم، والسياسي، والاديب، والحكيم. وعزَّز هؤلاء اقوالهم بشهادة الدعاة الذين اخفوا الحسن بن نزار في مكان ما في مصر، حتى تمكنوا أخيراً من تهريبه إلى ألموت.

ومهما يكن من امر.... فنحن لا نتعصب، ولا ننحاز لأيٍ من الفريقين، ونأبى في الوقت نفسه ان نكون تابعين أو مسخرين لاية فئة أو جهة.... فكل ما يهمنا قول الحقيقة، والوقوف عندها، وانكار المزاعم التافهة السخيفة التي يكون مصدرها الحقد والتعصب... سواء اغضب قولنا هذا الفريق، ام ارضاه.... فعلينا واجب وضع النقاط على الحروف، والتجرد في القول. ولهذا نقول:

انه كان من أولى الواجبات على المستعليين ان لا يثيروا مثل هذه المزاعم الباطلة... وكان عليهم بدلاً عنها ان يراجعوا حساباتهم على ضوء الضمير والوجدان، ويدركوا بأن اسطورة امامهم «الطيِّب» الذي دخل في الستر منذ ولادته، لا يمكن ان تغطي مزاعمهم وأقوالهم عن الحسن بن نزار، ومن جهة

اخرى كان عليهم ان يعلموا بأن داعيهم الاكبر «الافضل الجمالي» الارسي لم يكن سوى جسمًا غريباً تسرَّب إلى حرم الدولة الفاطمية، فعمل على تقويض أركانها وخرابها استجابة إلى انانيته واطماعه وشهوته في الحكم.

ان المجال الآن لا يتسع امامنا لاكثر من ذلك، وعندما نكرر ما قلناه... ننفي انحيازنا إلى أية جهة اسماعيلية سواء المستعلية بفرعيها: السليمانية والداؤدية... أو النزارية بفروعها العديدة مؤكدين:

بان عملنا الادبي مستقل، وهو نابع من الاسماعيلية العلمانية الاصيلة، امَّا اختصاصنا فهو مجهود فردي لا يخضع لأية جهة، ولا يستمد مادته ألاَّ من الضمير والذمة والوجدان.

ونعود بعد هذا... إلى ما كنا في صدده عن دولة ألموت النزارية. فنقول:

نحن الآن وجهاً إلى وجه امام مصدرين اسماعيلين نزاريين ذهب كل منهما في طريق بعيد عن الآخر.... ومن الواضح ان التقاءهما اخيراً على هدف واحد، ونقطة معينة لا يخفي اهمية الاختلاف، ولا يقلل من شأنه.

فالمصادر «الآغافانية» تذكر:

بأن الامام الذي اقامه الحسن بن الصبَّاح في ألموت هو «الهادي» ابن نزار، وجاء بعده «المهتدي» ثم «القاهر» ثمَّ

«على ذكره السلام». . امَّا الخامس فهو «جلال الدين حسن» والسادس «علاء الدين محمد». . . والسابع والاخير هو «ركن الدين ـ خيرشاه».

بينما مصادر فرقة «المؤمنية النزارية» تذكر:

بأن الامام الأول الذي حكم في «ألموت» هو «الحسن بن نـزار» وبعده تسلَّم «محمـد بن الحسن»، وبعده «حسن بن محمد ـ جلال الدين» وبعده «محمد بن الحسن ـ علاء الدين» وآخرهم هو «محمود بن محمد ـ ركن الدين».

وتضيف هذه المصادر:

بأن: «هادي، ومهتدي، وقاهر، وعلى ذكره السلام، ليست سوى القاب للامام «الحسن بن نزار».

وكما هي خطتنا بالنسبة للتاريخ الاسماعيلية، فإننا نقف من هذه الاختلافات موقف الحياد الذي يفرض علينا عرض الوقائع، وتركها دون أي تعليق. . . ففي التاريخ أقوال كثيرة، ومزاعم متراكمة عديدة، وشوائب لا تحصى. . . وفي التاريخ مظاهر لا يصدقها العقل، واسرار غامضة تخفي وراءها الحقيقة، وخاصة ما كان منها مدوّناً في عهود الظلام.

اجل. . . قد يكون من المفيد والشيق الخوض في بحر المواضيع المجهولة في تاريخنا العربي والاسلامي، والكشف عن القضايا المستعصية الكامنة في طيَّات الازمنة. . . ولكن ما

حيلتنا ونحن امام القضية الكبرى التي تبرز في الواجهة وتعيق المسيرة، واعني بها فقدان المصادر التاريخية التي تعرضت في العصور القديمة إلى العبث والتمزيق والحرق... وخاصة ما كان منها متعلقاً بالاسماعيلية... هذه الفرقة العلمانية التي كتبت انصع الصفحات في تاريخ الفكر وفي الادب والفلسفة، فقد مرَّ يوم اعتبر كل اثر من آثارها جرماً هدَّاماً يمثل الكفر والزندقة والالحاد، فتخريبه أو حرقه واجب وجهاد في سبيل الله.

فيالخيبة الامل... ويا للمصيبة الكبرى... والآن... كم هو واجب علينا، ونحن في عصر التطلع والنور والحضارة ان نتجاوز هذه العقلية المتخلفة، وان نزيل من نفوسنا كل ما علق فيها من غبار وآثار.

في ربوع التاريخ

«نزار بن المستنصر بالله»

ولد في القاهرة «المعزّية» سنة ٤٣٧ هـ... هو الابن الأكبر للخليفة الفاطمي الثامن الامام المستنصر بالله، والولي الشرعي للامامة الاسماعيلية، وذلك بموجب النص والوصية الشرعية التي ظلّت قائمة ومعترفاً بها طيلة أربعين عاماً.

بعد وفاة والده تعرَّض إلى مؤامرة كبرى أطاحت به، دبرها قائد الجيوش الفاطمية «الافضل الجمالي» الارمني، وذلك لكي

يضمن بقاءه في مركز القيادة، بعد ان تمكن من اسناد الخلافة إلى ابن شقيقته «المستعلي» الابن الاصغر للخليفة المستنصر بالله.

كان نزار ابن خمسين عاماً عند وفاة والده، ويعتبر رأس الأئمة النزاريين الذين حكموا «ألموت» كما ذكرنا، وإليه تعود نسبتهم.

قتل في القاهرة مع أولاده واخوته وباقي افراد اسرته، وكما ذكرنا فإنه لم يسلم منهم سوى ولده الصغير الحسن.

«الحسن بن نزار»:

ولد في القاهرة «المعزّية» سنة ٤٨١ هـ. هو أصغر أولاد نزار، وقد نجا هو ووالدته من مؤامرة القتل باعجوبة. وكما ذكر: فإن الداعيان «زاده اسد» و«حسن بن سعيدي» احتفظا بهما، وأخفيانهما في مكان ما في مصر، ثم بعد ذلك اخذوه مع والدته إلى ألموت في فارس وكان له من العمر تسعة سنوات، وهناك أعلن الحسن الصبّاح عن امامته، وعهد به إلى نخبة من الدعاة للسهر عليه وتربيته وتثقيفه واعداده لمنصب الخلافة.

يعتبر الامام الأول بالنسبة لأئمة ألموت النزاريين. توفي في ألموت سنة ٥٣٤ هـ.

«محمد بن الحسن»

ولد في قلعة ألموت سنة ٥١٣، وتلقى علومه على أيدي

الدعاة الكبار في ألموت وكان الحسن بن الصبّاح يخصه بالعطف، ويعده للمهمات الكبرى.

ما كاد يتسلّم شؤون الخلافة حتى عصفت بدولته العواصف، فموت الحسن بن الصبّاح ومن بعده نائبه «كيابزرك اميد» فتح الباب على مصراعيه امام الطامعين، وأولهم «محمد بن الكيابزرك» الذي ما كاد يتسلّم منصب القيادة بعد والده، حتى أعلن عن امامته، ودعا إلى بطلان امامة «محمد بن الحسن»... ومن الجدير بالذكر ان ولده «الحسن» عارضه، وانضم إلى الامام محمد بن الحسن الذي لم يجد امامه سوى الفرار من ألموت. فلجأ إلى احدى قلاع الدعوة الاسماعيلية في بلاد الشام حيث أعلن عن قيام الدولة النزارية في «مصياف»[1] وهذه الدولة كانت تضم القلاع الآتية:

مصياف، القاهرة، الرصافة، القدموس، الكهف، العليقة، المينقة، الخوابي، المرقب، صهيون، وغيرها، وكانت حدود دولته تمتد من شرقي طرطوس جنوباً حتى جبال السماق شمالاً، ومن البحر غربا حتى ضواحي حماه شرقاً.

عرف «الامام محمد بن الحسن» بشجاعته وبعد نظره... ويعتبر مؤسس دولة مصياف النزارية التي استطاعت الصمود بوجه الصليبين... فهو بحقٍ من انجب تلاميذ الحسن بن الصبّاح.

---

(١) راجع كتابنا «سنان وصلاح الدين» دار بيروت ١٩٥٤ - بيروت - لبنان.

ارتبط تاريخه بتاريخ صلاح الدين الايوبي، وله معه قصص وحكايات، ووقائع جديرة بالاعجاب... كان اديباً وفيلسوفاً ورياضياً وعالم فلك، وشاعراً رقيقاً... ولكن مؤلفاته فقدت جميعها.

ألقابه التي عرف بها.... شيخ الجبل، وسنان، وراشد الدين... توفي في مصياف سنة ٥٧٢ هـ ودفن فيها.

شاعره هو: الامير فريد الحلّي... وديوانه لا يزال مخطوطاً.

حسن بن محمد «جلال الدين»:

ولد في قلعة «الكهف» السورية سنة ٥٥٤. ذكره المؤرخ «براون» في كتابه تاريخ الادب في ايران، واعتبره من الم‍ع الشخصيات الاسلامية.

بعد ان شبَّ وترعرع... جاء الدعاة وكبار رجال الدولة من «ألموت» فدعوه إلى العودة إلى عاصمة الدولة النزارية الاولى، بعد ان تمكن اتباعه من الاطاحة بالداعي «محمد بن كيابزرك» فعاد إليها، وبدأ يعيد إلى الدولة كيانها ونفوذها.

من أعماله الجريئة إقامة العلاقات الطيبة مع العباسيين، وفتح أبواب دولته للعلماء المسلمين السنيين. زار بغداد اثناء عودته من اداء فريضة الحج. ووقف إلى جانب الخوارزميين والغزنويين والامارات الاسلامية الاخرى في حروبهم ضد المغول، بعهد «جنكيز خان».

قتل سنة ٦١٧ هـ. بمؤامرة اعدها بعض الغلاة المتطرفين بالاتفاق مع النساء اللواتي كن على رأس الخدمة في قصره.

محمد بن الحسن «علاء الدين»

تسلَّم شؤون الامامة بعد مقتل والده... ولمّا كان صغيراً فقد عهد إلى مجلس وصاية بالاشراف على الدولة إلى أن كبر، وعندئذٍ سار سيرة طيبة.. ولكن العلاقات مع العباسيين أخذت تسوء من جديد، لأن مجلس الوصاية رفض كل علاقة تفرض على دولة ألموت مد اليد للعباسيين.

ذكر المؤرخ رشيد الدين:

ان الامام علاء الدين لم يكد يبلغ الخامسة والعشرين من عمره حتى أصيب بعارض شديد، وهو ما يسمّى «الماليخوليا» بحيث أصبح من الخطورة على أي انسان ان يقربه أو يفضي إليه بأنباء لا تسره أو لا ترضيه.

ذكر: انه تزوج وهو صغير، ولم يكد يبلغ الثامنة عشرة من عمره حتى انجب أول أولاده وهو: «محمود ركن الدين» فنصت على ولايته للعهد الامامي.

في عهده أوصل حاكم قهستان الاسماعيلي «ناصر الدين» الفيلسوف الكبير «نصير الدين الطوسي» إلى ألموت... فأنزله الامام علاء الدين منزلاً رحباً وسمّاه وزيراً، وداعياً للدعاة

مهمته اعدادهم وتثقيفهم، وهذا بالاضافة إلى الاشراف على المكتبة الكبرى. وكان ذلك سنة ٦٤٣ هـ.

وأخيراً:

وجد علاء الدين ذات يوم مقتولاً في قلعة «شيركوه»، وقد تبين ان مدبر مؤامرة القتل هو «الحسن المازندراني» الذي اعدم فيما بعد[١].

محمود «ركن الدين»

تسلّم شؤون الخلافة بعد مقتل والده أي سنة ٦٤٣ هـ... في عهده استعرت نيران الحرب والغزوات المغولية التي استهدفت دولة ألموت الاسماعيلية النزارية، وبعدها بغداد العباسية، وكان يقودها الطاغية السفّاح هولاكو.... وفي هذه الصفحات ننقل الوقائع عن تلك الفترة كما وردت في كتب التاريخ على ان نعود إلى التعليقات.

ذكر التاريخ[٢]

في شهر شعبان سنة ٦٥٤ هـ. نزل هولاكو في مروج «سمرقند» وأقام فيها أربعين يوماً، وهناك أدرك اخاه «ستتال

---

(١) تاريخ الأدب في إيران صحيفة ٥٨٠

(٢) تاريخ مختصر الدول للعلاّمة غريغوريوس أبي الفرج بن هرون الملطي المعروف (بابن العبري)

أغول» الأجل... واخبر بوفاة اخيه الثاني الذي كان في طرف «بلادر» فتكدَّر خاطره لهاتين الواقعتين... وقد وصل إليها الامير ارغون واكثر اكابر خراسان... فقوّا عزمه، وعبروا معه نهر جيحون، وكان الوقت شتاءً شديد البرد لا ينقشع الغيم، ولا ينقطع وقوع الثلج عن تلك البقاع، إلى وقت حلول الشمس في برج الحمل. فأمر الامراء ان يقصدوا في عساكرهم قلاع الاسماعيلين وكان مقدمهم «ركن الدين ـ خيرشاه بن محمد علاء الدين» فخرب خمس قلاع من قلاعه التي لم يكن فيها ذخائر للحصار، وأقبل رسول هولاكو إلى حد قصدان... وكان «كيدبوقا» قد سبق ففتح قلعة «شاهدز» وثلاثة اخرين من قلاعهم.

ولّما وصل إلى «ايلخان» و «عباس اباد» سيرَّ ركن الدين إلى «عبوديَّة» صبياً عمره نحو سبعة أو ثمانية سنوات، وذكر انه ولده، فلم يخف صنيعه على هولاكو، ولكنه لم يكاشفه في ذلك، بل اعزَّ الصبي وأكرمه ثم اعاده إليه، وبعد وصول هذا الابن المزوَّر إلى ركن الدين سيرَّ اخاه «سيرانشاه» في ثلاثمئة رجل على سبيل الحشر، فسيرَّ هولاكو الثلاثمئة إلى «جمال اباذ» من بلدة قزوين، واعاد اخاه محملاً رسالة إليه وهي:

انه إلى خمسة أيام ان لم يصل بنفسه إلى الخدمة. يحكم قلاعه، ويستعد للحرب، فأرسل رسولاً يقول:

انه لا يتجاسر على الخروج خوفاً من حشمه الذين معه

داخل القلعة، ولئلا يثبوا به، فإذا وجد فرصة جاء.... فعرف هولاكو انه مماطل مدافع من وقت إلى آخر، فرحل في الرابع عشر من شوال سنة ٦٥٤ هـ. من «بيشكام» أو «بنسكله» ونزل على القلعة المحازية «ليمون دره» وتقدم بقتل الثلاثمئة رجل التي معه من الاسماعيلين الذين كانوا «بجمال اباذ ـ قزوين» سراً وصار أهل قزوين يضربون بذلك مثلاً لمن يقتل «انبعث إلى جمال اباذ».

ولّما عاين «ركن الدين» نزول هولاكو بالقرب منه سيرً إليه رسولاً... يقول:

ان سبب تماطلي لم يكن غير اني ما كنت احقق وصوله المبارك... والآن: انا نازل اليوم او غداً.... وكانت تلك الليلة عيد الميلاد. فلماً عزم على الخروج ثاروه الغلاة من الاسماعيلية وواثبوه الفدائييون، ولم يمكنوه من الخروج. فسيرً إلى هولاكو وأعلمه بما هم عليه من التمرد... فأمره ان يداري الوقت معهم محافظاً نفسه منهم... وكيف ما كان يجب ان يحتال للنزول ولو تنكراً... وتقدم إلى الامراء ليحتفوا بالقلعة، وينصبوا المنجنيقات، ويقاتل كل منهم من يقاتل من الاسماعيلية.

فلماً اشتغل الاسماعيليون بقتال المغول نزل ركن الدين ومعه ولده وخواصه إلى عبودية هولاكو، وأظهر الخجل والندامة معترفاً بما كان منه، فشملته لطائف عواطف «ايلخان»، وبدّل

ما عند ركن الدين من الاستيحاش بالاستيناس. ولّما تحقق من بالقلعة ما ناله صاحبهم من الطمأنينة سلموا القلعة ونزلـوا عنها، وعندئذٍ هدمها المغول، واحتلوا جميـع القلاع التي في ذلك الوادي، وتوجه بعد ذلك «ايلجي» إلى متولي قلعة ألموت ليسلم قلعته فأبى، فنازله «بلغاي اغول» في عساكر جمة فطلب الامان، وخرج في اواخر ذي القعدة من السنة المذكورة.

وفي تلك الايام وصل «شمس الـدين محتشم» إلى قلاع قهستان، وأخذ «يرليغا» وسار معه اصحاب ركن الدين إلى قهستان ليخرب جميع القلاع وكان عددها يزيد على الخمسين فتحوها جميعاً إلاَّ قلعتين هما «كردكوه» و«كمشير» فـانهم لم يقدروا على فتحها إلاّ بعد سنتين، وفي أواسط ذي الحجة عاد هولاكو إلى «الاردو» بناحية همذان، وسيرَّ ركن الـدين بناتـه وأولاده إلى قزوين.

وفي سنة ٦٥٥ هـ. طلب ركن الدين من هولاكو ان يسييره إلى عبودية (مونكا تجاءآن) فأعجبه ذلك، وأرسله مع تسعة نفر من أصحابه صحبة الايلجية. فلماً وصلوا إلى بخارى خاصم الايلجية، واصطدم معهم، فحقـدوا عليه، فلماً وصلوا إلى «قراقورم» لم يؤذن لركن الدين ان يحضر، وبرز مرسوم «مونكا تجاءآن» إليه انه يجب عليك العودة إلى بلدك، والتقدم إلى نوابك ليسلموا قلعتي كردكوه وكمشير، فإذا سلموها يكون لك الاكرام والقبول.

فنكص ركن الدين بهذا الرجاء على عقبه، وفي الطريق اهلك مع من كان معه من اصحابه وبينهم ولده «مظفر الدين» واخيه «سيف الدين».

وقد أرسل بعد ذلك «قراقاي ايبكتجي» إلى قزوين، وقتل بني ركن الدين وبناته واخوته مع جميع عساكر الاسماعيلية، ويقال أن عددهم بلغ اثنى عشر ألفاً.

وجاء في مصدر آخر:

جاء هولاكو من كيش سنة ٦٥٤ هـ. إلى معقلين من معاقل لاسماعيلية في ولاية قهستان، فاستخلصهما وهما «تون وخوان» وقد أمر حينئذٍ بإعدام كل من يزيد عمره على عشر سنوات من سكان هاتين القلعتين، ثم استعمل هولاكو الطرق المغولية المعروفة بنشر الوعود الكاذبة رجاء أن يجني من ورائها ما يريد، وقد تنازعت المخاوف ركن الدين، وكان «نصير الدين الطوسي» يزين له الاستسلام.

وما زالوا يضيقون على الاسماعيلية الخناق حتى سلموا إليه بعض الحصون والمعاقل، ثم ان أرسل أخاه «سيرانشاه» ومعه ثلاثمئة رجل إلى هولاكو كرهائن، فأمر هولاكو بقتلهم في «جمال أباذ» بالقرب من قزوين. ثم اتبع ذلك قتل جميع الاسماعيلية الذين سلموا معاقلهم إليه، ولم يستثن من ذلك أحداً منهم حتى الاطفال، فإنه قتلهم في مهادهم، واستيأس جماعة من أشداء الاسماعيلية على مقاومة المغول، وحصل لهم

ركن الدين على عفوٍ كتابي «يرليغ»... ولكنهم استمروا على مدافعة المغول، واستطاعوا أن يقتلوا عدداً كبيراً منهم، غير أن هذه المحاولات جميعها لم تستطع أن تؤجل النهاية التي كانت تنتظر الاسماعيلية حينما اضطرَّ ركن الدين لتسليم نفسه إلى المغول سنة٦٥٤ هـ.

وحينما استولى المغول على قلعتي ألموت وميمون دز ... اعملوا الغارة ثم اشعلوا فيها النار بعد ذلك، وقد استطاع «عطاء ملك الجويني» أن يستأذن هولاكو في ان يحتجز لنفسه جملة من التآليف القيمة التي اشتملت عليها مكتبة ألموت التي جاء على ذكرها «رشيد الدين» بقوله:

انها كانت تضم مليون ونصف مجلد من الكتب الفلسفية والتاريخية ومصنفات الحكمة والادب والجبر والهندسة والفلك والفقه والفنون، وقد احتفظ المغول ببعض الأدوات والمراصد التي استعملوها لرصد النجوم.

وقد ترك لنا المؤرخ المذكور وصفاً للمهارة الفائقة التي بنى على أساسها حصن ألموت بحيث كان من الأماكن الحصينة التي لا يمكن اختراقها، وقد نقل إلينا أيضاً عن كتاب تاريخي وجده في الحصن وهو من تأليف «فخر الدولة» البويهي ... وفي هذا المؤلف يذكر: بأن الذين بنوا هذا الحصن هم امراء الديلم سنة ٢٤٦ هـ.

وقد استولى المغول بعد ذلك على بقية معاقل الاسماعيلية في

فارس، فأخذوا «كمسر» سنة ٦٥٥ هـ. ولكنهم لم يستطيعوا أن يأخذوا «كردكوه» حتى نهاية سنة ٦٥٨ هـ... وكان «منهاج السرّاج» قابعاً فيه على تدوين كتابه «طبقات ناصدي».

وأخذ المغول «ركن الدين» إلى همذان، وأحسنوا معاملته. وفي سنة ٦٥٥ هـ. أرسله المغول إلى «قراقورم» ليقدم نفسه إلى الامبراطور المغولي «منكوخان». وفي أثناء الطريق اضطروه إلى أن يأمر ضباطه في قهستان بتسليم قلعتهم إلى المغول، ففعلوا ذلك بعدما امنهم المغول على حياتهم، ولكنهم لم يلبثوا أن قتلوا من السكان الآمنين اثني عشر ألف بمجرد أن تحرك ركاب ركن الدين في طريقه إلى «قراقورم»، ولم يكد يصل إلى «قراقورم» حتى أمر «منكوخان» بقتله، وأمر بعد ذلك بقتل جميع اولاده اينما كانوا.

وجاء في مصدر آخر(١)

وقد نجح ركن الدين بأن هرّب ولده، وولي عهده «شمس الدين محمد»(٢) الوريث الشرعي للامامة الاسماعيلية، وكان عمره سبعة سنوات، وقد جاء بعد ذلك إلى «انجدان» وهي

---

(١) Les deux Sagesses.. H. Corbin et M^d Moin P 24. TEHRAN.
كتاب «جامع الحكمتين» هنري كوربان، ومحمد معين. صفحة / ٢٤/.. طهران.

(٢) شمس الدين محمد، هو غير «شمس تبريزي» صديق جلال الدين رومي. فشمس هذا من أهالي «سبزوان» بفارس، وكان من الدعاة الاسماعيلية، ومن أسرة النزاريين الألويتين.

على الطريق بين اصفهان وهمذان.

وجاء في المصادر الاسماعيلية[1].

لم يكف بنو العباس، واتباعهم يوماً واحداً عن تقديم الاذى لآل بيت النبوءة الاطهار، والقيام بالتحريض والمؤامرات عليهم اينما وجدوا. وفي عهد الامام «ركن الدين» في ألموت زينوا للحفل، ورسموا لهم خطة اجتياح قلاع الدعوة الاسماعيلية، وقدموا لهم الاموال والرجال والسلاح.

وعندما زحف المغل على قلاع الدعوة تجنَّد الكثير من أعوان بني العباس وتابعيهم ومريديهم في صفوف المغل . . . وكانوا ينادون إلى الجهاد الأكبر.

فقتلوا الأطفال، ورموا بهم من فوق أسوار الحصون أمام امهاتهم وآبائهم، وبقروا بطون النساء بالحراب، وأحرقوا الرجال وهم مكبلين بالحديد . . . وأحرقوا المصاحف، ودمروا بيوت الله على رؤوس المصلين والشيوخ والعلماء.

وأخيراً: شجعوا المغل على قتل الامام ركن الدين مع أطفاله ونسائه وافراد أسرته، واعتقدوا أنهم بذلك يطفئون نور الامامة من الوجود. . . ولكن هذا النور ما لبث أن ظهر في جهة من جهات الأرض. . . أمَّا نورهم فانطفأ إلى أبد الآبدين . . . وهكذا تكون نهاية الظالمين».

---

(١) كتاب «فصول وأخبار» [مخطوط] صفحة ١١٣ (نور الدين أحمد).

أتوقف هنا . . . بعد هذا العرض التاريخي الذي اعتبرته شبه المدخل إلى عالم الفيلسوف نصير الدين الطوسي الفسيح . . . وعندما انتقل إليه يعتريني شعور غريب، وأحس بأن هذا الفيلسوف لم يمنحه التاريخ ما يستحقه من التقدير والاهتمام. وقد تكون الأسباب والعلل كثيرة.

ومهما يكن من أمر . . . فنحن في هذه الدراسة سنناقش الآراء التي وردت عنه. . . والأقوال والقصص التي نسجت حوله . . . وعلى ضوء المنطق والعقل سنتحدث عنه، وسنلقي بكل ما لا يدخل في نطاق العقل في سلة المهملات . . . فغايتنا إزالة الشوائب المتحدرة من رواسب القرون البعيدة، وابعاد الاخطاء المتسربة إلى مواقعنا وتاريخنا . . . ولا شيء غير هذا.

ان حياة هذا الفيلسوف طافحة بالاحداث. فالدور الذي لعبه على مسرح العالم الاسلامي يعتبر من أهم الادوار السياسية في التاريخ الاسلامي، من هنا كان علينا أن نعمل على إخراجه إلى حيز الواقع، ووضعه في المكان الذي كان فيه، دون زيادة أو نقصان. وعندما نفعل نعلن:

بأننا لا نجامل، ولا نتراجع عن قول الحقيقة، التي يجب أن تكون دعامة تاريخنا العربي، والنهج الذي نسير عليه في كل ما يتعلق بأدبنا وتراثنا.

المصادر العربية والاجنبية
عن نصير الدين الطوسي

هذا الفصل القيم الذي يحدد المصادر العربية والاجنبية عن نصير الدين الطوسي له اهميته التاريخية، وقد رأيناه ضرورياً ولازماً، بالنسبة لكتابنا، ومن الواضح اننا اعتمدنا على ما جاء في كتاب «الفيلسوف نصير الدين الطوسي» للباحث المتمكن «الدكتور عبد الامير الاعسم» الذي لا يسعنا إلاّ الاشادة بمقدرته وسعة اطلاعه.

١ ـ «ابن شاكر» الكتبي ، فوات الوفيات، ط. القاهرة ١٩٥٣
٢ ـ «ابن العبري» ـ تاريخ مختصر الدول، ط. بيروت ١٨٩٠ ص
٣ ـ «ابن العماد» ـ شذرات الذهب، ط. مصر ١٩٣١
٤ ـ «ابن الغوطي» ـ الحوادث الجامعة، ط. بغداد ١٩٣٢
٥ ـ «ابن قيم» الجوزية ـ إغاثة اللهفان، ط. مصر ١٩٣٩
٦ ـ «ابن كثير» البداية والنهاية، ط. مصر ١٩٢٩
٧ ـ «ابن الوردي» تتمة المختصر في اخبار البشر ـ لأبي الفداء، ط. القاهرة ـ مصر ١٨٦٨
٨ ـ «ابن ابي جمهور» الاحسائي ـ المجلي، ط. طهران ١٩٠٦
٩ ـ «البحراني» يوسف ـ لؤلؤة البحرين، ط. طهران ١٨٥٢

١٠ ـ «الجزائري» نعمة الله ـ الانوار النعمانية، ط. طهران ١٨٦٣
١١ ـ «الحائري» منتهى المقال، ط. طهران ١٨٨٥
١٢ ـ «الخوانساري» روضات الجنّات، ط. طهران ١٨٩٠
١٣ ـ «الكنتوري» كشف الحجب، ط. كلكتا ـ الهند ١٩٠٢
١٤ ـ «المجلسي» محمد باقر ـ بحار الانوار، ط. طهران ١٨٨٤ ـ «كتاب الاجازات»
١٥ ـ «المحبّي» خلاصة الاثر، ط. مصر ١٨٦٧
١٦ ـ «النوري» ـ مستدرك الوسائل، ط. طهران ١٩٠٣

وتحدث عن النصير مجموعة من الباحثين ابرزهم:

«آغا بزرك» الطهراني في كتابه «الذريعة إلى تصانيف الشيعة»، و«محسن الامين» في كتابه «اعيان الشيعة» ط. بيروت ١٩٥٩، كما ترجم له «الشيخ عبّاس القمي في كتابه «الكنى والالقاب» ط. صيدا ١٩٣٩، «والشيخ عبدالله نعمة» في «فلاسفة الشيعة» ط. بيروت. وقدّم «الدكتور كامل مصطفى الشيبي» جملة اراء عنه في كتابه «الفكر الشيعي»، والنزعات الصوفية. ط. بغداد ـ ١٩٦٦ كما تحدث عنه «عباس العزاوي» في كتابه: «تاريخ العراق بين احتلالين ط. بغداد ١٩٣٥. وفي الناحية العلمية، تحدث عنه «قدري حافظ طوقان في كتابه «تراث العرب العلمي، ط. القاهرة ١٩٦٣، وخير الدين الزركلي في كتاب «الاعلام» ط. القاهرة ١٩٥٦.

امّا المصادر الفارسية... فهي التالية:

١ ـ «أبرو» حافظ ـ ذيل جامع التواريخ، ط. طهران ١٩٢٩

٢ ـ «الاردستاني» محفل الاوصياء «مخطوط»
٣ ـ «التستري» نورالله ـ مجالس المؤمنين، ط. ايران ١٩٠٢
٤ ـ «التنكابني» قصص العلماء، ط. طهران ١٩١٢
٥ ـ «خدابخش» مولوي ـ محبوب الالباب، ط. حيدر اباد ـ الهند ١٨٩٦
٦ ـ «مستوفي» حمدالله ـ تاريخ كُزيدة، ط. طهران ١٩١٠
٧ ـ «معصوم» علي ـ طرائق الحقائق، ط. ايران ١٩٠١
٨ ـ «هداية» رضاقلي ـ رياض العارفين، ط. طهران ١٨٨٨
٩ ـ «يميني» البكتاشي ـ فضيلة نامة «مخطوط»
١٠ ـ «امشة آي» الدكتور... منشورات جامعة طهران
١١ ـ «ذبيح الله صفا» «تحرير» ط. طهران ١٩٥٧
١٢ ـ «رضوي» مدرس ـ منشورات جامعة طهران
١٣ ـ «روان بخش» كاظم، ط. طهران ١٩٥٠

وهناك مراجع اخرى يجب الرجوع اليها عند استعراض مؤلفات نصير الدين الطوسي، ومنها المطبوعة والمخطوطة، كما ان هنالك ايضاً عدداً من المجلات العربية التي تحدثت عن هذا الفيلسوف احاديث عامة كتبها نخبة من الباحثين.

امّا بالنسبة للابحاث التي كتبها المستشرقون، فالبرغم من وفرتها على انها ليست بالقدر الذي كتبه الباحثون العرب والمسلمين. ويأتي في طليعة هؤلاء:

«هورتن، وفيدمان، وستيفنسن، وثير، وروسكا، ومينورسكي، ووريل، ومايكل، وونتر، وبويل، وويكنز، وبروكلمان، وشتروطمان، وايفانوف، وبراون، وتومسون،

وماسينيون، وزيلمان، وهونكه، وروزنثال، وغيرهم.

ان هذه المصادر التي عددناها، نعترف بأن الحظ لم يساعدنا على الاطلاع على ما جاء بها بالرغم من ان معرفتنا، بأن ليس فيها كل ما يجب ان يقال عن نصير الدين الطوسي، وبرأينا: لا تستحق ان نجعل منها أساساً للبحث، ما دامت تنحدر من مورد واحد، وتلتقي في النهاية في موقع عام ليس فيه اي وضوح أو جديد.

«نصير الدين الطوسي»
في
مرابع التاريخ

هو: محمد بن محمد بن الحسن... كان يكنىً بأبي جعفر، وينسب إلى «طوس» وبعضهم ينسبه إلى «جهرود» وهي من اعمال طوس.

ألقابه: المولى، والخواجه... وهي ألقاب كانت شائعة في بلاد فارس، وتطلق على كبار العلماء، وخاصة «الصوفيين». امّا لقبه الحقيقي، فهو: «فخر الحكماء، ومؤيد الفضلاء... ودعوه بالفيلسوف، وسلطان المحققين، واستاذ الحكماء والمتكلمين، وأفضل المتأخرين، امّا الاسماعيليون فكانوا يطلقون عليه اسم: الداعي الاجل، وحجة الامام، وداعي الدعاة.

عرف الأوروبيون نصير الدين الطوسي، وحظي بتقديرهم واحترامهم وخاصة العلماء والمستشرقين منهم.

قال عنه جورج سارتون:

انه اعظم علماء الاسلام، ومن اكبر رياضييهم.

وقال عنه بروكلمان:

ان نصير الدين أشهر علماء القرن السابع، وأشهر مؤلفيه على الاطلاق.

وقال عنه «ايفانوف»:

ان نصير الدين الطوسي بدأ اسماعيلياً، وظل حتى آخر حياته مواظباً وعاملاً لها. ولا اشك إلّا ان والده كان من كبار دعاة الاسماعيلية، وإليه يرجع الفضل في توجيه ابنه الوجهة الاسماعيلية.

ذكر:

انه ولد يوم السبت في الحادي عشر من جمادى الأولى وقت طلوع الشمس سنة ٥٩٧ هـ وهناك مصدر آخر يذكر: انه ولد سنة ٦٠٧ هـ. ولكننا نرجح المصدر الأول.

درس على والده وخاله، وكان لوالده اعتبار خاص لدى العلماء، وهكذا خاله «الحكيم فاضل بابا افضل الكاشي» الذي وصف بأنه كان من الفلاسفة الكبار. ويبدو ان دروسهما

وتوجيهاتها انطبعت في نصير الدين، فجعلته ملازماً ومنكباً عليها في الصغر، وعاملاً ومجاهداً في سبيلها في الكبر

في هذه الفترة من حياته، واعني بها مرحلة النمو، يبدو الغموض واضحاً، فالمصادر لم تذكر عنه سوى القليل القليل. وكل ما ذكر عنه:

انه عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره ظهرت عليه الرغبة بمتابعة تحصيل العلوم والمعارف فانتقل إلى «نيسابور» حيث انتسب إلى مدرستها الشهيرة التي كان لها الفضل بتخريج نخبة من الفلاسفة والرياضيين والفلكيين والسياسيين امثال: الحسن بن الصبّاح، والشاعر عمر الخيام، والوزير نظام الملك وغيره.

ومن الجدير بالذكر: انه قضى فيها ستة اعوام، في نهايتها تم اجتياح المغول للاقطار الاسلامية، كخوارزم، وسمرقند، وبخارى، ثم نيسابور اخيراً... وتؤكد المصادر: ان نصير الدين كان واحداً من الاربعمئة شخص الذين كتب لهم النجاة من الاجتياح المغولي الذي وقع ٦١٩ هـ.

ولا ندري بعد ذلك عنه إلاّ ما ذكرته المصادر من انه لجأ إلى طوس، حيث عكف على الدرس والتأليف... وتضيف المصادر: انه لازم «معين الدين المصري» طيلة تلك الفترة فدرس عليه الحكمة والفقه والرياضيات وعلم الفلك... فمن هو هذا المعين، وإلى أية مدرسة فكرية ينتسب...؟

من الواضح. . . ان شهرة نصير الدين قد ذاعت في تلك الفترة في جميع الانحاء وأخذ الناس يتحدثون عنه، ويشيدون بعلمه وتفوقه العلمي. . . فأقبلوا عليه من كل حدب وصوب ينهلون من علمه، ويعبون من معينه، ويبدو ان هذه الشهرة لم تلبث ان وصلت إلى الداعي الاسماعيلي «ناصر الدين عبد الرحيم بن ابي منصور» حاكم قوهستان من قبل الامام الاسماعيلي النزاري «محمد علاء الدين بن حسن جلال الدين» فوجه إليه الدعوة لزيارته في قوهستان وهي قصبة من خراسان، فلبّى الطلب ونزل عليه سنة ٦٢٥ هـ. ويبدو انه اعجب به، وبعلمه، فأقنعه بالاقامة عنده، ومهّد له الامكانيات التي تكفل له التخصص والانصراف إلى التأليف والتحصيل.

وهنا لا بد من التساؤل. . . لماذا استقدم ناصر الدين القهستاني نصير الدين، وشجعه ووفرَّ له الاسباب للاقامة بين ظهرانيه؟ الأنه كان اسماعيلياً مثله، ام لاسباب اخرى. . . في حين تثبت المصادر ان نصيراً في تلك الفترة كان ضالعاً بالعلوم الاسماعيلية، ومتمكناً منها، وقادراً على الكتابة عنها. . . فإذا كان ذلك، فعلى من درس هذه الفلسفة، ومن هو الاستاذ الذي لقنه أصولها وأوصله إلى حد التحدث عنها؟ ان كل هذا ظلَّ منسيّاً في حياة نصير الدين، ولم يتعرض له احد من الباحثين.

اني على يقين: بأن ناصر الدين لم يقدم تلك المساعدات

لنصير الدين إلاّ بعد أن وثق من قدرته على تقديم الخدمات للدعـوة الاسماعيليـة، واعطاء البيـانـات الصحيحة والصـور الـواضحة عنهـا في الكتب والمعـاهـد، وفي مجـال المناقشـة والدعاية... يدلنا على ذلك كتابه الأول «اخلاق نـاصري» الـذي كتبه بـاللغـة الفـارسيـة، ثم تـرجم بعـد ذلـك إلى العربية... فهذا الكتاب يمثل الافكار الاسماعيلية الفلسفية أصدق تمثيل، ويعطي الدليل على ان نصير الدين كان عريقاً وبالغاً في فهمها والتعبير عنها. امّا القول: بانه قد عدَّل بعض فصول الكتاب والمقدمة، وأزال كل ما يدل على اسماعيليته قبل وفاته ببضعة اعوام... فهذا القول مرفوض، ولا يهضمه العقل، كما لا يوجد ما يؤكده أو يبرره. فنصير الدين الطوسي الذي بلغ ما بلغ من علو المنزلة سياسياً واجتماعياً، ووصل إلى الذروة في مجال العلوم والمعارف لم يكن مجنوناً ولا مخموراً حتى ينقض اليوم ما كتبه بالامس، أو يهدم بناءً افنى حياته في سبيل اقامته، دون ان يكون هناك داعياً أو سبباً يوجب ذلك.

ومهما يكن من امر... فمثل هذه الاسطورة الخرافية لا تستحق إلاّ ان تضاف إلى الاساطير الكثيرة التي حاكها بعضهم عنه ومنها قولهم:

ان الاسماعيلين خطفوه من احد البساتين، وجاءوا به إلى ألموت حيث ظلَّ سجيناً فيها مدة ثلاثين عاماً... ولا أدري كيف استطاع هذا الفيلسوف خـلال هذه المدة كتـابة الكتب

العديدة وهو في مثل هذه الحالة القلقة... ثم لماذا لم يطالب أهله وقومه به؟ ومن جهة أخرى لست أدري أيضاً لماذا يلجأ الاسماعيليون لمثل هذه الاساليب، وهل كان ينقص دعوتهم العلماء والفلاسفة والادباء؟

ونعود إلى سيرة نصير الدين لنقول:

ان المصادر التاريخية ذكرت بأن «ناصر الدين» أرسله فيما بعد إلى «ألموت» بناءً على طلب صاحبها الامام «علاء الدين»... وهناك عهد إليه بوظيفة استشارية تعادل الوزارة.... وهنا تبدأ حياته الجديدة في ظل الدولة الاسماعيلية النزارية.... وذكر انه بعد مقتل علاء الدين اتخذه الامام الجديد «ركن الدين» وزيراً له، ثم اناط به مهمة «داعي الدعاة» وهي أعلى مرتبة في الدعوة والدولة، وكان ذلك سنة ٦٥٠ هـ. ومن الواضح انه ظلَّ قائمًا بمهمته بنجاح حتى حين اجتياح هولاكو للقلاع الاسماعيلية.

بعد ان تمَّ للمغول القضاء على دولة ألموت الاسماعيلية النزارية التحق نصير الدين بهولاكو، الذي منحه رتبة الوزارة.

وفي سنة ٦٥٥ هـ. بدأ فتح المغول لبغداد، وكان نصير الدين الطوسي مع هولاكو... فشهد اجتياح بغداد واستباحتها سنة ٦٥٦ هـ وشهد أيضاً مقتل الخليفة العباسي «المستعصم».

بعد موت هولاكو أصبح نصير الدين وزيراً لولده «اباقاخان»

وقد ظلَّ بمنصب الوزارة مدة تسعة سنوات.

وأخيراً:

مات في بغداد سنة ٦٧٢ هـ. ودفن فيها. وكان له من العمر /٧٥/ عاماً.

ردود ومناقشات:

هذا الباب خصصناه لمناقشة بعض الآراء، وللرد على المزاعم والاقوال المتداولة في كتب التاريخ عن نصير الدين الطوسي، وحينما قررنا ذلك، وضعنا نصب أعيننا مبدأ تجاوز الاسماء والتخصيص... فغايتنا الابتعاد عن المهاترات، ووضع النقاط على الحروف، والاستعانة بالعقل والمنطق كدليل للوصول إلى الحقيقة.

فلقد ورد بأن نصير الدين الطوسي... كان يقوم بالدراسة والتحصيل عندما اقتحمها جحافل المغول بقيادة «جنكيزخان»، وانه تمكن من الفرار، والوصول إلى موطنه الاول «طوس»

هذا صحيح:.. ويبدو ان هذه العملية العدوانية اعطت نصير الدين درساً مفيداً وقرَّبت إلى ذهنه الصورة الواضحة لاعمال الاقوياء ضد الضعفاء، وعلمته كيف تذهب الشعوب الضعيفة طمعاً للغناء تحت سنابك خيل الغزاة.

وفي طوس كما تدل المصادر، اعتزل الناس، وفاء إلى ظلال

الدرس والتأليف، عاكفاً على مؤلفات «ابن سينا» مقبلاً على رحيقها، شارباً سن معينها، متتبعاً أصولها وجوهرها... وقد ظلّ على هذا الحال حتى عمّت شهرته الآفاق، وتجاوزت الحدود... ولكن هل كان بالفعل راضياً عن أوضاعه وحياته تلك؟ وهل رأى في هذه الحياة المحدودة ما يرضي طموحه وتطلعاته، وما، يتلاءم وآماله وما اعده لمستقبله ومصيره؟.

انني على يقين... بأن نصير الدين لم يكن راضياً عن أوضاعه، ولا قانعاً بما يشاهده على الساحة العامة للدول الاسلامية التي كانت تتساقط الواحدة اثر الاخرى امام ضربات المغول دون ان يتحرك في داخل العالم الاسلامي أي ضمير أو وجدان للاتحاد والوقوف بوجه الخطر الداهم.

وانتقل إلى موضوع آخر متسائلاً عن الاسباب التي كانت تلزم نصير الدين باتباع نهج ابن سينا الفلسفي، على الرغم من بعد المسافة الزمنية بينها، ولماذا اختاره معلمًا ورمزاً يسير على دروبه ويقلده ويتمثل به في افكاره ودراساته واعماله... وكلنا يعلم بأن ابن سينا لم يكن سوى تلميذاً مجدداً في مدرسة اخوان الصفاء المثلة الاصيلة للنظام الاسماعيلي الفكري.

وهذا ما يحملني على الاعتقاد بوجود رابطة روحية بين اتباع هذا النظام الذي كان يغزو العقول في تلك العصور البعيدة، وهذه الرابطة الزمت ابن سينا بتقليد اخوان الصفاء والسير على دروبهم فكان موسوعياً مثلهم، وجاء أخيراً نصير الدين ليكمل

المسيرة، وليجعل من نفسه مرآة تنعكس فيها صورة هؤلاء الفلاسفة الكبار.

والحقيقة:

لو ان نصير الدين الطوسي كان سنيّاً لذهب إلى بغداد، وأقام فيها في ظل خلفاء بني العباس، بعد اجتياح المغول لنيسابور، وانه لو كان شيعياً لما تردد بالذهاب إلى الحلة أو الكوفة أو النجف الاشرف حيث الاسياد والأئمة من هذه الجماعة... ولكنه لجأ إلى الاسماعيلية لان في هذا اللجوء ما يحقق رغباته وأمانيه، ويمهد السبيل امامه لخدمة العقيدة التي رضع لبانها صغيراً، ورعاها وسهر عليها كبيراً.

وفي طوس... لم تطب له الاقامة... كان قلقاً تصطرع في رأسه الافكار... كان يشكو من العزلة والفرقة... وهذا ما جعله يهرع إلى قهستان حيث طابت له الاقامة في ربوع العقيدة التي اعتنقها صغيراً.

ولا بد من التساؤل مرة ثانية... كيف ان حاكم قهستان طلبه ورحب به وأكرمه... دون سابق معرفة.... وكيف بادر إلى ذلك، وهو يعلم ان الزائر الكريم يختلف عنه في المذهب، ولا يمكن الاستفادة من علمه وأدبه... ثم لماذا خصّه ناصر الدين دون سائر العلماء في ذلك العصر بهذا التقدير، طالما انه بعيد عنه في افكاره وعقيدته... ففي مثل هذه الحالة لا يمكن للدعوة الاسماعيلية جني أية فائدة منه.

اننا لا ندري كيف نفسر هذه الرموز...؟ كما اننا نقف عاجزين عن اعطاء البيان عن عملية الخطف التي زعم الزاعمون انها تمت على أيدي القراصنة الاسماعيليين؟ ثم لماذا خصّوا نصير الدين الطوسي وحده بهذا الخطف، ولم يفكروا بخطف غيره من العلماء والعباقرة، وهم أكثر من واحد... وهل اقدموا على هذه العلمية بناءً على حاجاتهم الماسة لرجال يتولون التدريس في معاهدهم، وتأليف الكتب عن عقيدتهم وفلسفتهم، ونحن لن نسمع أو نقرأ عنهم قبل ذلك الوقت أو بعده انهم كانوا يخطفون العلماء ويقودوهم إلى السجون، أو يجبروهم على اعتناق مذهبهم، والكتابة عن عقيدتهم؟

ان النظام الفكري الاسماعيلي كما نعلم.... قام على اساس العقل والمنطق وحرية الفكر، وقد مرَّ في مصادر عديدة بان انتصاراتهم الفكرية التي حققوها في الاقطار الاسلامية، لم تكن تتم إلاَّ عن طريق استيعاب دعاتهم للعلوم التي كانت تسود مجتمعاتهم. ولتفوقهم على اقرانهم في مجال الدعاية والاقناع... اذن فمثل هذه المزاعم لا تستحق التوقف عندها ولا اعارتها أي اهتمام، لانها تدخل في مجال الخرافات الاسطورية... ونحن عندما نضعها على بساط البحث، فلكي ندلل ونشير إلى هذا التردي الفكري الذي وصلنا إليه، عندما جعلنا اعتمادنا على الاساطير بدل الحقائق، أو عندما نجعل منها مادة دسمة، وأساساً، وصورة نوشح بها صفحات كتبنا ومقالاتنا.

إن كتاب نصير الدين القيم الموسوم بـ «أخلاق ناصري» الذي كتبه بالفارسية ثم ترجم فيما بعد إلى العربية يفسِّر لنا أموراً كثيرة.... فهذا الكتاب الفلسفي كتبه نصير الدين عندما أو ربما تلبية لطلب حاكم قهستان الاسماعيلي «ناصر الدين» ومن المؤكد أن نصير الدين حقق فيه آراءً إسماعيلية أصيلة.... ولكن مع كل أسف فإن النسخة الأصلية لهذا الكتاب لم يعثر عليها، ولو إنه تمَّ لنا ذلك... إذن لعرفنا الكثير الكثير عن نصير الدين وعقيدته، ولكنا وقفنا على ـ مدى إطلاع هذا الفيلسوف على الفلسفة الاسماعيلية وهو في هذا السن المبكر.

ومهما يكن من أمر... فإنه من الغريب جداً أن لا تظهر إلاَّ النسخة المحرَّفة من هذا الكتاب التي ذكر أن نصير الدين قد غيرَّ مقدمتها وبعض فصولها، بعد أن هجر الاسماعيليين، والتزم بمبدأ الشيعة الإثنى عشرية.... أي بعد أن فاءَ إلى ظلال الإيمان بعد الكفر.

إننا ونحن في موقفنا الذي لا يتغيَّر نرفض هذه الأسطورة.... ونجل الفيلسوف ورجل الدولة والسياسي «نصير الدين الطوسي» عن الانحدار إلى مثل هذه المواقع السحيقة، وهو الوزير والمستشار لأكبر قادة دول العالم في تلك الفترة... وإننا أيضاً نبرئه من مثل هذه الجريمة التي تتجلَّى فيها الإساءة لعقيدته ولشخصيته، فالفلسفة والدين لم يصلا

يوماً من الأيام عند نصير الدين إلى حد اعتبارهما سلعة تباع وتشرى في أسواق المزاد، أو مادة تتغير وتتبدل، تعلو وتهبط بطرفة عين حسب رغبة وأهواء ذوي المطامع من العلماء ورجال الدين المتأخرين.

مصادر التاريخ تذكر:

بان نصير الدين وضع في كتابه «أخلاق ناصري» زبدة الآراء الاسماعيلية وفاءً لسيده والمنعم عليه «ناصر الدين» وهذا يحملنا على الاعتقاد مرة ثانية بأن استيعابه لهذه العلوم وهو في هذا السن لم يكن تمويهاً ولا تقليداً. وإنما هو أصيلاً ومفروضاً عليه... فمن هو الأستاذ الذي لقنه أصول هذه الفلسفة ولم يتركه إلاَّ بعد أن بلغ فيها هذا المبلغ؟ إننا أمام ثلاثة إحتمالات... فأمَّا أن يكون والده «وهذا ما نرجحه» أو خاله... أو أستاذه الثالث «معين المصري»..؟

ومهما يكن من أمر... فإن دراسة الفلسفة الاسماعيلية، والكتابة عنها ليست مهمة سهلة وبرأينا إنها لا تتم بطرفة عين، وإنه لا بد لكل راغب في دراستها من الركون إلى أحد الأساتذة الضالعين ليتولَّى شرح النصوص، وتأويل الآيات، وتفسير الرموز... من هنا كان على أولئك الباحثين الذين كتبوا عن نصير الدين الطوسي أن يعوا هذه الأمور، ويدركوا ان في الكشف عنها، جلاء الحقيقة ـ والوصول إلى عالم هذا الفيلسوف الكبير.

والحقيقة، فإنني لا أدري، ويتملكني الذهول، كيف إن النسخة الأصلية لكتاب «أخلاق ـ ناصري» قد فقدت، وكيف لم تبقِ الأيدي لنا إلاّ النسخة المحرَّفة المعدلة التي زعموا أن نصير الدين قد عدلها، وأزال منها كل ما يمت إلى الاسماعيلية وفلسفتها بصلة.

فيا لها من مصيبة كبرى تصيب الفكر العربي والإسلامي في الصميم... بل يا لها من كارثة تطغي على العقول والنفوس وتحرمها من لذة التطلع إلى الخير والجمال والمحبة، وتقودها في المنعطفات الوعرة المليئة بالحقد والتعصب والجهل... كل هذا حتى أصبحنا نشعر إننا في وضع أقل ما يقال فيه إنه يتجرد عن كل ما يسمَّى فضيلة أو أخلاق.

فعلى رسلكم أيها الناس... قليلاً من المنطق والعقل والضمير... فنحن في عصر الحضارات والاكتشافات، أليس حري بنا أن نرجع إلى ضمائرنا فنناشدها التوجه نحو التآلف والمحبة والوئام... أما آن الأوان للخروج من مستنقع الرواسب القديمة، ومخلفات القرون السالفة التي خلفتها الأيدي الغريبة المخربة لتجعل منا أمة متنابذة ومتناحرة... نخوض المعارك دونما أي سبب، ونفتعل الوقائع تحت ستار الدين دون أن يكون لنا إتصال به.... نضع الخطأ مكان الصواب، والتحريف مكان الصدق، في سبيل قضايا تافهة، وكاننا لا نعلم أن عملنا هذا يسيء إلى إعلامنا ومفكرينا في

قبورهم، وخاصة عندما نحرِّف أقوالهم، ونخترع المزاعم عنهم، مبتعدين عن القضايا الإنسانية الكبرى التي كثيراً ما ادعينا زوراً وتهباناً إننا من دعاتها وبناتها والعاملين لها.

إن علماء الاسماعيلية في كافة الأزمنة لم يكونوا دعاة هدم وتخريب، وهذا هو التاريخ يشهد لهم بأنهم لم يكونوا سوى فئة صالحة مجتهدة عاملة، وضعت نصب أعينها إصلاح المجتمع، وإخراجه إلى حيث النور على أسس من السلام والعلم الذي لم يكن يتنافى وتعاليم الإسلام... فلماذا هذا النكران وهذا الجحود... ولماذا لإنزال نعتبرها فئة غير صالحة دأبها اقتراف الجرائم، وافتعال المؤامرات والقيام بعمليات خطف العلماء، والإتيان بهم إلى السجون، وإجبارهم على اعتناق مذهبها وكتابة الكتب عنه.

إن المصادر التاريخية التي تعرضت لنصير الدين الطوسي ذكرت إنه خلال إقامته في ألموت وضع أقوم الكتب في الفلسفة والرياضيات والفلك والعلوم الأخرى... أو بالأحرى موسوعته الفكرية التي جاء تصنيفها موافقاً لموسوعة ابن سينا.... فهل فكرنا في يوم من الأيام، أو كلفنا أنفسنا مهمة المقارنة بين الموسوعتين، أو هل حاولنا الرجوع إلى موسوعة إخوان الصفاء، لندرس الأفكار والآراء التي وردت فيها ومدى علاقتها بآراء ابن سينا، ومن بعده نصير الدين الطوسي؟

أجل... لقد عاش نصير الدين الطوسي مدة تقارب من

الثلاثين عاماً في «ألمـوت» عاصمـة الدولـة الإسماعيليـة في فارس... فرافق نهضتها الفكرية، وساهم في توطيد أسس مدرستها العلمية التي سار ذكرها في كل مكان. أمَّا بالنسبة للسياسة فإن نصير الدين عايش تلك الدولة أبان قوتها وامتداد نفوذها وهيبتها... يوم كانت شوكة في عين الدولة العباسية، وغيرها من الدول والإمارات ومن الواضح كما نستدل من تاريخها إنها لم تتخذ أي موقف معادٍ لأية دولة، ولا خطر في بال قادتها الاعتداء على أية دولة إسلاميـة، أو التدخـل في شؤونها، وإنَّما اكتفت برد الهجمات والدفاع عن وجودها... إنها فترة شباب تلك الدولة الفتية ذات المليون والنصف كتاب في مختلف العلوم والفنـون فضـلاً عن المـراصـد والتقـاويم والأسطرلابات الفلكية.

وأخيراً:

شهد نصير الدين الطوسي سقوط هذه الدولة على أيدي المغول... شهد مؤامرة العباسيين، وتشجيعهم للمغول على القضاء على الـدولة التي كـانوا يعتبـرونها أخطر عليهم من العباسيين أنفسهـم... وشهد مقتل «إمام» هذه الدولة «ركن الدين» وإبادة أولاده وأسرته جميعاً... فماذا ترك هذا المشهد الدامي في نفس هذاالفيلسوف العبقري...؟ هذا ما سنجيب عليه في الصفحات التالية:

اللهُّم منك العون.. فالدنيا تكاد تضيق علينا رغم سعتها،

نحن أبناء هذه الطبقة من الناس التي تملك الحساسية المرهفة والشعور الرقيق... وذلك عندما إلى تذكر تلك المأساة الإنسانية... مأساة ألموت.... مأساة الأسرة الفاطمية.

أجل... إن السنتنا تكاد لا تقوى على النطق، وأقلامنا ترتجف في أيدينا ونحن نسجل هذه الصفحات الطافحة بالحزن والدموع.؛. فالمأساة لم تكن لتتم لولا الخيانة والتشجيع والمساعدات التي وضعتها دولة إسلامية بتصرف الدخلاء الغزاة للقضاء على دولة إسلامية شقيقة.

المأساة الكبرى
وسقوط ألموت:

ليس جديداً، ولا غريباً إقدام الطاغية هولاكو على قتل الإمام ركن الدين وأسرته جميعها... فهذا الطاغية عريق بالعذر والإجرام... ولكن الجديد والغريب معاً إقدام العباسيين على المشاركة بالجريمة، ومد يد العون للطاغية لتنفيذ جريمته التي لم يكن يجرؤ على تمثيلها إلّا بعد أن وثق من تمزق ـ الصف الإسلامي، ووجود وباء الحقد في نفوس تلك المجموعة من الرجال الذين أخذوا على عاتقهم قيادة الأمة والسير بها في دروب الحياة. أمّا هولاكو فقد أعاد للأذهان جريمة «الأفضل الجمالي» الذي مثل فصولها على مسرح البلاد المصرية بإقدامه على قتل نزار وأسرته... وكأني بهذا الأرمني

أراد أن يعيد للذاكرة جريمة «القرامطة» التي نفذوها في مدينة «سلمية» السورية يوم أقدموا على إبادة أسرة «عبيد الله المهدي» وهذه الجرائم الثلاث تعكس مأساة «كربلاء» الشهيرة.

إن التاريخ يعيد نفسه.... والمأساة مازالت تتكرر عبر العصور... وفي كل مرة يذهب ضحيتها الأبرياء من هذه الأسرة الفاطمية العريقة التي تتحدر من بيت النبوة الكريم... لا لشيء إلّا لأنها اتخذت سبيل الخير والمحبة والسلام مبدأ لها، وعملت على إخراج المجتمع الإسلامي من عالم الظلام إلى حيث النور والسعادة والخير.

إن نصير الدين الطوسي الذي شهد مأساة ألموت ومقتل الإمام ركن الدين وأسرته وسقوط الدولة التي ساهم بخدمتها، وعمل على رفع مستواها... لم يكن بالرجل المغفل الجاهل الذي تفوته الأسرار والأسباب والدوافع، بل كان على معرفة وثقة بالمحرضين والمساهمين والمشجعين، وهم من غير المغول طبعاً، فهؤلاء ساءهم قيام هذه الدولة في تلك المنطقة، وأزعجهم أن يجعل قادتها من الحصون والقلاع التي بلغ عددهم المئة خطاً دفاعياً يمنع الغزاة والمغيرين من تخطي الحدود.... فعملوا على إسقاطها وتدميرها وهم لا يعلمون بأن هذا السلاح ذو حدين، ولا يلبث أن ينقلب عليهم، ويحز رقابهم.

لقد ثبت تاريخياً: إن نصير الدين «الوزير» بذل شتى

المحاولات، وعمل كل ما في استطاعته لمنع هبوب العاصفة، تهدئة عواطف المغول الثائرة... وكانت خطته تقضي بعقد هدنة يتمكن خلالها من إنجاز بعض المشاورات التي تؤدي إلى توحيد الصفوف الإسلامية للوقوف بوجه خطر المغول الداهم... ولكن أخطاء غير متوقعة وقعت، وأدّت في نهاية المطاف إلى فرض الحرب... فكان ما كان.

ومن الواضح... إن المغول كانوا يخشون من قوة دولة ألموت، ومن استعداداتها الدفاعية، ووجودها طبيعياً كخط دفاعي يقف بوجه أي اندفاع نحو بغداد والبلاد الإسلامية الأخرى، ولم يكشفوا عن وجوههم القناع، أو يتقدموا إلى المجال، إلاّ بعد أن وثقوا بسنوح الفرصة وترحيب العباسيين واستعدادهم للمساهمة بإسقاط هذه الدولة.

بعض المؤرخين ذكروا:

بأن الإمام ركن الدين صاحب ألموت، وقع في خطأ كبير، عندما استسلم للمغول مخالفاً بذلك إرادة الأكثرية من قواده، وكان بإمكانه الصمود وقتاً أطول.... وكل هذا ثبط عزيمة المحاربين الاسماعيليين الذين صمموا على البقاء وراء أسوار قلاعهم وحصونهم، والدفاع عنها حتى آخر نقطة من دمائهم.

ونحن نرى:

إن استسلام ركن الدين للمغول لم يتم إلاّ بعد موافقة

الوزير نصير الدين... فهذا السياسي العبقري رأى بثاقب نظره... إن الصمود ولمدة طويلة أمام هذه الجحافل الجيَّاشة من المغولي يبدو مستحيلاً، خاصة وإن لا أمل بتلقّي أية مساعدات من الخارج، وبعد فقدان مواد الإعاشة ووقوف الدولة العباسية هذا الموقف المعادي.

وأخيراً:

لم تثمر الجهود التي بذلها نصير الدين لإنقاذ الموقف... فوقع ما كان يخشاه، وسقطت الدولة التي كان يعيش في كنفها آمناً مطمئناً، وقتل الإمام الذي رعاه وعطف عليه وبوأه أعلى المراتب والمناصب.... وكل هذا يجعلنا نبادر إلى الخروج عن الصمت والقول:

ماذا كان على نصير الدين أن يفعل، وهو أمام المأساة وجهاً إلى وجه... أيستسلم للحدث الرهيب، ويرضى من الغنيمة بالفرار، أم يذهب إلى بغداد ذليلاً مندحراً لينحني أمام خليفتها مباركاً عمله، مثنياً على جهوده... وكيف ينسى الضحايا الأبرياء... الأطفال... النساء... الشيوخ... المكتبة ذات المليون والنصف مجلد التي ذهبت طعماً للنيران...؟

في الواقع... إنها صورة حزينة متوهجة بنار العاطفة لا تغيب، ومشهد يعكس، الفاجعة التاريخية التي تستدر الدموع، وتحرك خلجات النفس، وتجعل الإنسان مهما امتلك من روية واتزان في عالم من الضياع وفقدان الإدراك.

إنها المأساة التي ساهم ومهَّد لها الأشقاء، وأقاموا الأفراح، ورقصوا وسكروا بخمور الشماتة بعد تمثيلها.... هذه الآلام والمشاعر المرهفة عرضت لنصير الدين، فاستعاد فصولها وقرأ وقائعها، في فترة كان يعرض عليه هولاكو منصب المستشار الخاص.... فهولاكو كان بحاجة إلى مستشار يمتلك الخبرة وسعة الإطلاع والمعرفة في الشؤون السياسية، ويقبل نصير الدين المنصب الرفيع، واضعاً نصب عينيه بادىء ذي بدء إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الاسماعيليين الذين شردوا من قلاعهم وحصونهم، وذهبوا في طول البلاد وعرضها كلاجئين لا يملكون من حطام الدنيا ما يسد رمقهم أو يستر أبدانهم.... وبهذا يعيدهم إلى مواطنهم.... أمَّا ما ذكرته بعض المصادر عنهم بأنهم تطوعوا في جيش هولاكو الذي اندفع إلى بغداد حاملين فكرة الثأر والانتقام، فهذا لم يتحقق، ونستبعد وقوعه.

ومهما يكن من أمر.... فقد بالغت المصادر التاريخية باتهام نصير الدين بالخيانة واعتبرت قبوله منصب الوزارة لدى هولاكو جريمة كبرى... ونحن نقف من هذا موقفاً مختلفاً ونقول:

بان نصير الدين هدف من وراء استيزاره لهولاكو إنقاذ ما يمكن إنقاذه من فلول الاسماعيليين.... أمَّا مشاركته باجتياح بغداد واستباحتها وتدمير مكتبتها، وقتل خليفتها المستعصم العباسي، فهذا باعتقادي كان خارجاً عن إرادته. ومع الفرض إنه سكت عليه، فعذره إنه كان انعكاساً لاجتياح دولة ألموت

الاسماعيلية، وحرق مكتبتها، وقتل أمامها «ركن الدين».

ويجب أن لا يفوتنا أن استيلاء المغول على بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية، لم يكن سوى حلم راود جفونهم منذ عهد جنكيزخان... ولكن تحقيق هذا الحلم كان يتطلب إزالة الخط الدفاعي الأول الذي يتألف من قلاع دولة ألموت الاسماعيلية، والذي كان يقف بوجههم ويمنع أي تقدم لجيوشهم... وأخيراً: اعتمدوا تفريق الصفوف، وضرب كل دولة على حدة.... وبالفعل نجحت خطتهم، بوجود التربة الصالحة لدى العباسيين الذين شجعوهم، ووضعوا تحت تصرفهم الأسلحة والعتاد والمتطوعين والأموال.... وإنه لمن المؤسف حقاً أن لا يسجل التاريخ على صفحاته هذه الوقائع... ومن التجني أن تمر مثل هذه المؤامرة دون تعليق أو توبيخ أو تنديد... بينما تتجه الأنظار إلى نصير الدين وحده؟

إن مأساة ألموت لم يشهد التاريخ أقسى ولا أعنف منها، ومع ذلك ظلّ صامتاً عنها، وهذا لا نجد له تفسيراً إلّا القول: ويل للتاريخ من التاريخ.

ونعود إلى نصير الدين لندرس المؤثرات التي دفعته إلى قبول وزارة هولاكو... أفليس في هذا القبول ما يؤكد إسماعيليته، ويلبي رغبته بمشاهدة مصير الذين كانوا وراء النكبة الكبرى؟

أمّا إعلانه عن شيعيته أو إثنى عشريته... فهذا لا يبدل من واقعه، ولا يغير ما رسخ في قلبه، وكأني بالمؤرخين جهلوا

إبعاد هذه الخطة السياسية التي أراد من ورائها أحداث فجوة بين السنة والشيعة في العراق، فضمن بذلك ولاء الشيعة للدولة الغازية، وعزلها عن الصراع الدائر، وجعلها في مأمن من نيران المغول، وقد تجلّى هذا بصيانة بيوت الشيعة في بغداد من كل أذى واستباحة ودمار.

هذا هو ملخص ما حدث في تلك الفترة العصيبة... وقد كانت رغبتنا بتسجيله هنا لنضع صورة صحيحة عن الأدوار والمهمات التي تمثل بها إنهيار الكرامات، والسقوط الأخلاقي، ـ والابتعاد عن مواطن الفضيلة والشرف.

نصير الدين الطوسي
في
المصادر الإسماعيلية:

هذا الفصل يشكل برأينا أهم ناحية في حياة نصير الدين الطوسي.... وعندما نتطرق إليه نرى لزاماً علينا أن نقول:

إن المصادر الاسماعيلية التاريخية عن تلك الفترة جاءت قليلة ونادرة... وأعتقد إنها ذهبت طعمًا لنيران هولاكو التي أضرمها في مكتبة ألموت الاسماعيلية، فمؤلفات نصير الدين وغيرها التي كانت تشكل جانباً من تلك المكتبة لم يبقى منها أي أثر، وبالتأكيد لم يسلم منها إلا النسخ التي كان يمتلكها أفراد يسكنون في مناطق بعيدة، وهي التي شاعت أخيراً

وتـداولتها الأيـدي، وأصبحت عـرضـة للنسـخ والتحـريف والحذف.

أما مكتبات الاسماعيليين في بلاد الشام... فهي أيضاً لم تسلم من أيدي العـابثين والحاقـدين، لأن هؤلاء تعرضـوا للحروب وللغزوات، وباعتقادي أن كل ما سلم منها لا يسد الفراغ.

هناك مصدر ذكرناه في كتابنا «أربع رسائل إسماعيلية» وقد ورد على لسان الداعي الاسماعيلي «شمس الدين الـطيبي» الـذي تتلمذ عـلى نصير الـدين... فقد ذكـر في رسـالتـه الاسماعيلية المسماة «الدستور» بأنه سمع كلماتها من الداعي الاسماعيلي الكبير نصير الدين الطوسي، ونصير الدين بدوره سمعها من الإمام «علاء الدين محمد».

وجاء في مصدر آخر:

بأن «شمس الدين بن أحمد الطيبي» كان شاعراً واشتهر بقصيدته التي ألقاها على مسمع الإمام «علاء الدين محمد» ومنها هذه الأبيات:

إنمّـا الـنـفس لـلخـليـقـة لـبُّ
وكـذا الجـسـم في الحـقـيـقـة قشـرُ
فـأطـلب الـلبَّ وأتـرَك الـقـشـر
يشـرح لـك صـدر وثم يـوضـع وزر

واتبع الحق لا تمل عن هداه
باعتقادٍ يراه زيدٌ وعمرو

ومنها:

سقط البوم حيث خسّ فأضحى
فوق أيدي الملوك باز وصقرُ
نحن أطفال غادة وعلينا
لولي الأمور نهيٌ وزجرُ
والفتى في يد الطبيعة عبدٌ
فإذا حلَّ قيده فهو حرٌّ
نحن كالماء يدفع البعض بعضاً
ليتم المسير والدهر نهر

ومنها:

طاب شعر الطيبي لم لا وفيه
من ثناءِ الأئمة الطهر عطر
أولياء الهدى أئمة صدق
سادة قادة الميامين غرٌّ
قرشيون هاشميون عرب
شأنهم حكمة وتقوى وبر
هم هداة الأنام إن ضلَّ قصدٌ
وسقاة الغمام إن عزَّ قطر

وهـــم الـــقـــصـــد في الـــصـــلاة فـــلولا
ذكـــرهـــم لم يـــكـــن عـــشـــاء وظـــهـــر
وعـــليـــهـــم نـــزول أنّـــا فـــتـــحـــنـــا
وبهـــم بـــشـــرَّت إذا جـــاء نـــصـــر
وكـــفـــى المـــدح أن يـــقـــال نـــبي
ووصـــي لـــه وســـبـــط وصـــهـــر

وورد في كتاب «فصول وأخبار» لمؤلفه «نور الدين أحمد» من القرن السابع للهجرة ما خلاصته:

«نصير الدين بن محمد».... الحكيم الصادق... داعي الدعاة... ثقه الإمام... علم الدين».

وفي مكان آخر يذكر هذه الأبيات ويقول:

إنها من نظم «نصير الدين بن محمد... داعي دعاة مولانا علاء الدين محمد.....

وهذه هي الأبيات كما وردت:

لـــو أنَّ عبـــداً أتى بـــالصـــالحـــات غـــداً
وودَّ كـــل نـــبي مـــرســـل ونـــبي
وصـــام مـــا صـــام صـــوامٌ بـــلا مـــللٍ
وقـــام مـــا قـــام قـــوامٌ بـــلا كـــســـل
وطـــار في الجـــو لا يـــأوي إلى أحـــدٍ
وغـــاص في البحـــر لا يخشى من البلل

وعـاش في الأرض آلافـاً مـؤلـفـة
معفى من الـذنب معصـومـاً من الـزلـل
مـا كـان في الحشـر يـوم البعث منتفعـاً
إلاّ بـحـب أمـير المـؤمـنـين عـلي

وجاء في مكان آخر:

«نصير الدين بن محمد».... خدم الدعوة في عهد الإمامين: «علاء الدين وركن الدين» وأنقذ علم الإمامة وشمسها «شمس الدين» الذي عاد إلى «عهد الستر» لأمر يريده الله. وقد وفّر له مكاناً من الأرض، فكان له خادماً وداعياً ينهل من فيض علومه، ويستمد منه القوة والمعرفة.

وجاء أيضاً في هذا الكتاب مايلي:

«قيس بن منصور الداديخي[1] شاعر وداعٍ... إلتحق ببيت الدعوة بقلعة ألموت وأنشد المولى «علاء الدين» قصيدته:

«قدر الإمام الفاطمي معظّم»

درس العلوم على داعي الدعاة «نصير الدين بن محمد» وظلّ ملازماً له إلى أن اجتاح «المغل» قلاع الدعوة.... فهلكَ مع من هلكَ من المجاهدين الأبرار... (رحمه الله).

وجاء أيضاً:

(١) نسبة إلى «داديخ» وهي قرية على مقربة من حلب وكان يقطنها الاسماعيليون.

وأحرق «المغل» المراصد والخرائط الفلكية التي أقامها حجة الإمام، «نصير الدين».

إني أترك التعليق على هذه المصادر للباحثين وللدارسين المنصفين الذين يهمهم الوصول إلى الحقيقة من جهة، وللقراء الكرام الذين وضعنا أمام أعينهم الصورة الواضحة لحياة نصير الدين. . . :. هذه الصورة التي تجلّى فيها التأكيد والبيان، بأن هذا الفيلسوف لم يتخلّ عن إسماعيليته رغم النكبة الكبرى التي أطاحت بالدولة الاسماعيلية، بل ظلّ على ولائه وعهده حتى للإمام الصغير «شمس الدين بن ركن الدين» الذي تذكر المصادر بأنه أنقذه وتعهده ووفرّ له أسباب الرجوع إلى عهد «الستر» المعترف عليه لدى الاسماعيليين، وبهذا يكون قد أعطى الدليل على وفائه لعقيدته حتى آخر ساعة من حياته.

ومن المعلوم إن الإمام شمس الدين هذا استقرّ أخيراً في «قونية» التركية، وقام بعدة رحلات إلى قلاع الدعوة الاسماعيلية في بلاد الشام للإشراف على أتباعه الذين ظلّوا صامدين في ديارهم. . . . . . وغير خافٍ إن رحلاته ونشاط وأعماله كانت ترتدي طابع السرية، وتحاط بسياج كثيف من الكتمان، لأن أعداءه كانوا يلاحقونه، ويتربصون به الدوائر.

إنه عهد بعيد. . . وفترة تاريخية غامضة، تخللتها حروب واجتياحات، وغزوات وانقلابات غيَّرت جغرافية البلدان الاسلامية، وأزالت عروش وخلفاء وملوك وأمراء. . . . من

هنا فإن الواجب العلمي يلزم مؤرخي هذه الفترة أن يتحلوا بالنزاهة والتجرد، وأن يحكموا العقل والضمير والوعي، حتى تأتي أقوالهم متفقة والحقيقة المنشودة.

إننا لا نستطيع إحصاء كل ما كتب عن نصير الدين الطوسي، أو مناقشة كل المقالات والكتب والبحوث التي كتبت عنه... ولا أدري بعد ذلك إذا كنا ملزمين بتصديقها أو إقرار جزء منها وهل تعيد هذه الأقوال الإطمئنان إلى قلوبنا؟ وكيف ونحن نرى بوضوح الإنحراف والتناقض ظاهراً عليها ظهور الشمس في رابعة النهار؟

أجل... إنه لمن الصعوبة بمكان مناقشة كل ما كتب عن نصير الدين الطوسي، كما إنه من العسير علينا أن نصل إلى حقيقة هذا الفيلسوف إلاّ على ضوء المصادر الاسماعيلية.... أمّا ما دمنا غير متجردين بأفكارنا، وغير ملتزمين بمبدأ التحرر والخروج من دائرة الاغلال التي تكبلنا، وتعيدنا إلى عهد الرواسب، والأزمنة المظلمة... فسنبقى ضمن الحلقة المفرغة، وفي كهوف الظلام.

فنحن لا يهمنا أن يقول البعض: أن نصير الدين قد اختطفه الاسماعيليون من أحد البساتين وإنهم سجنوه في قلعة الموت، وأجبروه على تأليف الكتب الفلسفية التي تنحو المنحى الاسماعيلي تحت طائلة الضغط والإرهاب، وإنه بعد سقوط دولة ألموت الاسماعيلية التي عاش فيها قرابة ثلاثين عاماً،

أعلن بعدها توبته، وفاء إلى الإيمان بعد الكفر، وغيَّر كل ما كتبه في تلك المدة الطويلة، وإنه عاد إلى عقيدته الأساسية الشيعة الإثنى عشرية.

أجل... إن كل هذا لا يهمنا بقدر ما يهمنا إتهام هذا الفيلسوف بالكفر تارة، وبالخيانة والانحطاط الخلقي أخرى، في وقت نرى علماء الشرق والغرب يهرعون إلى تقديره وتكريمه والإشادة بعلمه واعتباره من أكابر الفلاسفة والرياضيين الموسوعيين بعد ابن سينا... أمَّا محاولاتهم إبعاده عن دائرة العلم والفلسفة والسياسة، وإعطاء فكرة عنه بأنه لم يكن سوى شيخاً من مشائخ الطرق المعروفة بانعزالها وانكماشها... فهذه مسألة فيها نظر... أو فلنقل عنها خطيئة من الأخطاء التي تواجهنا في كل مرة نعود إلى التاريخ.

فهل نصدق إن هذا الفيلسوف قد عدم رشده، ووصل إلى هذا الحد من الانحطاط الخلقي بعد هذا العمر الطويل الذي قضاه وهو في مرابع العلم والمعرفة.... وعلى الفرض إنه وصل إلى هذه المرحلة من الخرف..... فأين مؤلفاته ورسائله وكتبه التي تثبت تنكره للمبدأ الاسماعيلي وللدولة التي عاش في ظلها هذه المدة الطويلة... فنحن لم نعثر على أي نص لنصير الدين الطوسي في نقد الفلسفة الاسماعيلية، أو الرد عليها... وعلى العكس فكل ما رأيناه لديه الالتزام بالمبدأ والنهج والأسلوب الذي تبناه وسار عليه أستاذه ابن سينا، وهو

المبدأ الفلسفي والعلمي والعقائدي والموسوعي لأخوان الصفاء الاسماعيليين.

ممَّا لا يخفى... إن «التقيَّة» هي مبدأ عام للاسماعيليين، سار عليه دعاتهم وعملوا بموجبه في كافة مراحل حياتهم وعهودهم، كما إن «الستر» مبدأ اختص به «الأئمة» الفاطميين منذ قيام دعوتهم في سلمية - سورية في مستهل القرن الثاني للهجرة... فهذه التقية لازمت نصير الدين، وشكلت الجزء الأهم من حياته، ويدخل في هذا النطاق إنحيازه أخيراً للشيعة الإثني عشرية في العراق عند بدء اجتياحه من قبل المغول، فأعلن بأنه من أتباع مذهبهم، وبأنه ما جاء إلى بغداد مع هولاكو إلّا لحمايتهم من خطر المغول، وعزلهم عن العباسيين «السنة». ولا أرى في هذا التدبير السياسي أي رجوع عن الدين، أو أي انحراف أو خروج عن المبادىء... ما دام إنه المسؤول عن السياسة العليا لهولاكو، وعن تطبيق تعليماته ومبادئه القائلة: «فرِّق تسد».

وننتقل بعد هذا العرض.... إلى قصة الوزير العباسي «مؤيد الدين بن أحمد العلقمي» الذي تسلَّم الوزارة بعد عامين من مجيء «المستعصم» إلى الخلافة أي سنة ٦٤٢ هـ. والمستعصم هو ابن «المستنصر بالله» العباسي الذي شهد وعاصر اندفاع جنكيزخان وجيوشه المغولية نحو بلاد فارس، وقد مرَّ معنا إن هذا الطاغية لم يتمكن من تحقيق أحلامه المغولية كلها، فجاء هولاكو بعده ليكمل ما بدأه.

ولا بد من مناقشة الأقوال التي جاءت تؤكد بأن نصير الدين كان على اتصال مباشر بابن العلقمي قبل اجتياح هولاكو للقلاع الاسماعيلية، وإنه في تلك الفترة أرسل قصيدة في مدح الخليفة المستعصم معلناً عن رغبته بالذهاب إلى بغداد والعيش فيها في ظل الدولة العباسية... فهذا القول يرفضه العقل، ولا يمكننا الأخذ به، لأن نصير الدين في هذه الحالة يكون قد خرج عن عقيدته الاسماعيلية، أو شيعيته الإثنى عشرية، إذا صحّ وكان انتماءه إلى هذه الأخيرة صحيحاً، وفي الحالتين يكون نصير الدين قد أثبت بأنه سنيّاً.... وهذا لا يتفق مع مبادئه وعقيدته التي كرس حياته لها.

قد يكون نصير الدين أجرى إتصالاً بابن العلقمي بعد سقوط الدولة الاسماعيلية في ألموت وقد تكون مصلحة هولاكو قد قضت بهذا الاتصال الذي تدخل فيه الإغراءات والمواعيد والمواثيق في سبيل الإبقاء على ابن العلقمي في منصبه لقاء تعاونه وخدماته للفاتحين المغول... أمّا قبل ذلك فأمر مشكوك فيه، ولا يمكن تصديقه.

أمّا مقتل «ابن العلقمي» فقد يكون وراءه إخفاء الأسرار، ودفن المؤامرة والوثائق والرسائل التي حصل عليها من نصير الدين، والتي يتعهد له بالإبقاء عليه في منصبه، وقد يكون فيما بينها ما يتعرض فيه إلى مقتل الخليفة المستعصم.

وعندما نذكر قولهم: بأن ابن العلقمي كان إسماعيلياً، أو

جاسوساً يعمل لمصلحتهم في البلاط العباسي. . . فهـذا لا نجد ما يؤيده، ونعتبره من الأساطير والخرافات.

ومهما يكن من أمر. . . . فإن نصير الدين بعد اجتياح بغداد سنة ٦٥٦ هـ. ظلَّ وزيراً لهولاكو. . . وفي تلك الفترة خصَّص القسم الأكبر من حياته للأعمال العلمية، فأقام الحلقات والندوات وشكل المجامع، وفتح أبوابه للعلماء ، وسهر على راحتهم، ومنحهم المساعدات التي تكفل لهم الاستمرار والبقاء، وعكف على تأسيس المكتبة الكبرى في «مراغة»، فزودها بالكتب التي سلمت من مكتبة بغداد وغيرها من الكتب التي حصل عليها من الأقطار العربية الأخرى، وأقام المرصد المعروف باسمه، وغير ذلك من الأعمال العلمية التي يتجلَّى فيها حرصه على رفع مستوى العلم، وحفظ التراث الإسلامي من الضياع ولو إنه في ظل المغول.

وبعد موت هولاكو تسلَّم إبنه «أبا قاخان» فأبقى نصير الدين قريباً منه لمدة تربد على التسعة أعوام. . . . ومن الجدير بالذكر إن تأثيره عليه كان أكثر من تأثيره على والده بحيث تمكن من الإصلاح، وإعادة الثقة والأمان إلى الناس، وإيجاد جو من الهدوء والاستقرار، وكل هذا مهَّد السبيل أمام نصير الدين للعودة إلى إجراء العلم والتأليف وإفادة الناس. . . وقد ظلَّ هكذا حتى أدركته الوفاة في بغداد سنة ٦٧٣ هـ. وكان له من العمر خمسة وسبعون عاماً.

ويذكر التاريخ:

إن جثمانه قد شيع في موكب كبير تجلّى فيه إجلال الناس واحترامهم وتقديرهم.... فكانت جنازته مظاهرة كبرى لم يسبق أن جرى مثلها... وكل هذا يدل على مكانته لدى الخاص والعام، وعلى ما قدمه من خدمات للناس دون تمييز بينهم مدللاً بذلك على سمو أخلاقه وتربيته وثقافته وإنسانيته.

صفاته وأخلاقه:

إشتهر نصير الدين بأخلاقه الحميدة وتواضعه وتسامحه وعطفه على الفقراء، والمحتاجين، ورعاية العلماء من أي فريق أو مذهب كان.

وقد نقل القمي عن ابن المطهّر قوله:

إن النصير كان أشرف من شاهدناه في الأخلاق، وقد يكون للدور السياسي الكبير الذي كان يضطلع فيه بعد فتح المغول لبغداد أكبر الأثر في ترك الآثار للناس عن شخصيته، الكبرى، وسلوكه مع أعدائه وأصدقائه.

وذكر مؤيد الدين العرضي عنه في مقدمة كتابه: «شرح آلات مرصد مراغه وأدواته قوله:

بإشارة من مولانا المعظم، والإمام الأعظم... العالم الفاضل المحقّق الكامل قدوة العلماء وسيد الحكماء، وأفضل

علماء الإسلاميين بل والمتقدمين، وهو من جمع الله سبحانه فيه في كافة أهل زماننا من الفضائل والمناقب الحميدة وحسن السيرة وغزارة الحلم وجزالة الرأي وجودة البديهة والإحاطة بسائر العلوم... فجمع العلماء إليه وضمَّ شملهم بوافر عطائه، وكان بهم أرأف من الوالد على ولده... فكنا في ظله آمنين، وبرؤيته فرحين... وهو المولى نصير الملة والدين محمد بن محمد الطوسي.... أدام الله أيامه... فلله أيام جمعتنا بخدمته، وأبهجتنا بفوائده، وإن كانت قد أبعدتنا عن الأوطان والعشيرة والولدان.

فإن في وجوده عوضاً عن غيره، ومن وجده فما فاته شيء، ومن فاته فقد عدم كل شيء... فلا أخلانا الله منه.... وأمتعنا بطول بقائه.

إن شهادة العرضي هذه ليست وحدها التي تطري مزايا نصير الدين ولكنها تأتي لتنضم إلى شهادات أخرى ومنها ما ذهب إليه ابن كثير الذي وصفه بالعقل والفضل وكرم الخلق وهكذا فعل الغوطي.

وممَّا يدل على سمو أخلاقه وفضله وعطفه إنه... بعد مقتل الخليفة العباسي المستعصم أخذ أحد أولاده المسمَّى «مبارك» وجعله في كنفه وتحت رعايته، ثم أخذه بعد ذلك إلى مراغة حيث أمَّن له الحياة، وذكر إنه زوجَّه حتى أنجب ولدين، وكانت حياته سعيدة ومرفهة في ظله.

وهكذا فعل عند مقتل الإمام الاسماعيلي «ركن الدين» وأسرته فإنه بادر إلى إنقاذ أحد أولاده «شمس الدين»، فأخفاه عن الناس فترة في إحدى الجهات الآمنة أي في «انجدان» ثم نقله بعد ذلك إلى «قونية» التركية. وشمس الدين هذا أصبح أماماً للاسماعيليين النزاريين.

وعند اجتياح المغول لبغداد لم يتوقف عن أعمال الخير. . . فاستحصل من هولاكو على أمر باستثناء المسيحيين والشيعة والعائلات الغير إسلامية من الاستباحة، وهكذا بالنسبة للعلماء ورجال الفكر والدين.

أساتذته وتلاميذه:

عندما نستعرض الأساتذة الذين درس عليهم، سواء في صغره أو في كبره فيجب أن نضع في مقدمتهم والده الذي ذكر عنه بأنه لم يحتضنه إبناً فحسب بل تلميذاً يدرس عليه المبادىء العامة للفكر الإسلامي، وقد شاركه في هذه المهمة خاله «فاضل بابا المعروف بأفضل ـ الكاشي». . الذي تؤكد المصادر بأنه كان معدوداً من الفلاسفة الكبار الذين ضربوا بسهم وافر في مختلف العلوم في ذلك العصر وخاصة الفلسفة.

وذكر:

إن من بين أساتذته الذين درس عليهم بعد ذلك «سالم بن بدران المازني المصري» و«محمد بن أبي بكر إبراهيم النيسابوري

المعروف بالشيخ العطّار، وأبو السعادات الأصفهاني، وكمال الدين بن يونس الموصلي وغيرهم.

وذكر أيضاً:

إنه درس الفقه بعد وصوله إلى بغداد على أساتذة آخرين، وكان له من العمر آنئذٍ سبعون عاماً.

وهذا القول يحتاج إلى أكثر من برهان ودليل، لأن نصير الدين بعد هذا العمر لم يكن بحاجة إلى معلمين، كما إنه لم يكن في عصره من يمتلك المؤهلات والقدرة والتفوق عليه حتى يجعل منه مدرساً له... مضافاً إلى ذلك عدم حاجته إلى المزيد من العلوم في تلك الفترة التي بلغ فيها حد النضوج... أمّا أستاذه الحقيقي الذي طبعه بطابعه، وأثّر فيه فيبقى ابن سينا، ومن قبله إخوان الصفا... فلهؤلاء عليه كل الفضل في كل ما اغترفه من علوم ومعارف.

أمّا تلاميذه، فأكثر من أن يحصيهم عدد... وجميعهم لازموه في ألموت وأخذوا عنه العلوم الاسماعيلية، وقد يكونوا جميعاً سقطوا شهداء على أرض المعركة ابان اجتياح هولاكو لدولتهم الاسماعيلية النزارية، ويدخل في عدادهم: «شمس الدين بن أحمد الطيبي» و«قيس الداديخي» اللذان ذكرناهما.

وذكرت المصادر الأخرى أيضاً:

إن من بينهم: ميثم البحراني، وابن المطهر الحلي، وعبد

الكريم بن أحمد بن طاووس، وقطب الدين الشيرازي، ونجم الدين علي «دبيران» وغيرهم.

وهناك أولاده: صدر الدين، وأصيل الدين، وفخر الدين... الذين أدبهم وأحسن تعليمهم، وقد ذكر إنه استخلفهم على أوقاف العراق.

نصير الدين الفيلسوف:

لا بد من القول قبل التحدث عن نصير الدين الفيلسوف:

بأن علماء وأئمة الشيعة الإثنى عشرية الكريمة على سعة إطلاعهم وخبرتهم وتفوقهم في علوم الفقه والقانون وعلم الكلام... فإنهم لم يعنوا بالفلسفة وما يتفرع عنها من الالهيات والماورائيات، وخاصة ما كان منه له صلة بالأفلاطونية اليونانية. فلغة العقل الفعّال والنفس الكليّة والهيولى والصورة والمبدأ والمعاد، وعلم الإعداد ومطابقاتهم للأفلاك، والمثل والممثول والمبدع والإبداع وواجب الوجود، وغير ذلك من التعابير الفلسفية، فلا نجد لها أي أثر في مؤلفات علمائها، في حين نرى نصير الدين الطوسي يكرس جهوده، ويخص الجانب الأكبر من فلسفته بالسير على نهج ابن سينا وإخوان الصفا... وهذا يفسر ويؤكد عدم ارتباطه بالمدرسة الشيعية الإثنى عشرية... وكما ذكرنا فإن هذا الارتباط كان سياسياً أكثر ما

هو عقائذياً وقد فرضته الظروف الاستثنائية التي اقتضتها سياسة المغول وقائدهم هولاكو.

فالانتماء السياسي لم يكن يوماً من الأيام حافزاً للإنتماء العقائدي الديني، ولا يشكل أي ارتباط به... هذا وتدلنا كتب التاريخ إن بعض الخلفاء الإسلاميين وفي ظروف عديدة كانوا يستخدمون النصارى واليهود في المناصب العليا وفي الوزارات، دون أن يكون هذا الاستخدام ملزماً هؤلاء بالإنتماء إلى دين الدولة التي يعملون فيها.

لقد قلنا في كتابنا عن ابن سينا[1].

إنه كان مَن مدرسة إخوان الصفاء الاسماعيلية... وقلنا: إنه لم يختلف معهم إلاَّ في طريقة المنهج والأسلوب والتعريف الفلسفي... ولعلّ هذا ما يجب علينا قوله عن الفيلسوف نصير الدين.

فتقليد نصير الدين لابن سينا في كل خطوة من خطواته سواء العلمية أو السياسية يدفعنا إلى القول: بأنه كان تلميذه ومثوله، وقد يكون تفوَّق عليه في مجالات أخرى كعلم الفلك ـ والرياضيات... ويتجلى هذا بنقد نصير الدين لكتاب المجسطي الذي دلَّ على عبقرية خارقة وطول باع في علم الفلَك، ممَّا يجعلنا نؤكد بأن هذا النقد كان خطوة تمهيدية

(١) ـ ابن سينا ـ في مرابع إخوان الصفاء.

لإصلاحات علمية تبناها البعض من أعلام النهضة الأوروبية في عصورهم المبكرة.

مضافاً إلى ذلك.... فإن تصديه للرازي (فخر الدين) في شرحه لكتاب ـ «الإشارات والتنبيهات» يدل على فهم عميق للفلسفة السينويه، وعلى براعة في فهم رموزها وأصولها وأبعادها... وكل هذا يعكس صورته في مرآة ابن سينا الوزير ورجل الدولة الذي ارتدى ثياب العالم والسياسي والفيلسوف والموسوعي الذي يفرض عليه واقعه الوقوف والتفوق بكل شاردة وواردة من علوم الأولين والآخرين.

إن شرح نصير الدين لكتاب «الإشارات والتنبيهات» قد عمم وانتشر سنة ٦٧٢ هـ. أي قبل وفاته بعام واحد... وفي هذا الكتاب تظهر عقيدته الفلسفية جليَّة، بل يظهر توافقه لآراء ابن سينا التي سطرها في هذا الكتاب، فلو إنه كان إثنى عشرياً شيعياً كما ذكر فلماذا لم يغير مضمون الشرح ويجعله متفقاً وآراء الشيعة في وقت كان يقيم بين ظهرانيهم؟

وفي كتابه «تلخيص المحصِّل» الذي صحَّح ونقد وعارض فيه آراء الرازي، يظهر واضحاً إنتماءه إلى النظام الفكري الاسماعيلي الذي كان عليه ابن سينا.... وفي رأيي إنه اتبع النهج نفسه الذي سار عليه الداعي الاسماعيلي «أبو حاتم الرازي» قبل ثلاثمائة عام في نقده لآراء الرازي (أبو بكر) وفي كتابه «أعلام النبوءة».

وفي كتاب «التجريد» تظهر عراقة نصير الدين بالفلسفة... ما لكتاب اعتبر في الدوائر العلمية بأنه من أقوم ما كتبه في الفلسفة على الإطلاق... وقد ذكر إنه وضعه في عهد متأخر أي بعد عودته من رحلة الكفر إلى الإيمان، وقد تمَّ هذا سنة ٦٦٠ هـ.

ومهما يكن من أمر... فالكتاب لا يعطي أية فكرة تدل عن ابتعاده عن نهجه السينوي الاسماعيلي الأول، ولا يشير إلى أي تغيير أو انتماء إلى الشيعة الإثنى عشرية... وبالعكس تظهر فيه الاصطلاحات والعبارات الفلسفية التي استعملها الدعاة الاسماعيليون.

من هنا وجب علينا أن نقول:

بأن هذا الكتاب لم يدرس الدراسة الكافية، وإن الشروح التي عليه ليست كافية لإعطاء الصورة الصحيحة عنه، ولا بد من مقارنة نصوصه وأصوله، بآراء ابن سينا، وإخوان الصفاء.

مؤلفاته:

وضع نصير الدين الطوسي العديد من الكتب والرسائل والمقالات في مواضيع وعلوم شتى فقد ذكر إن عدد مؤلفاته يربو على المئة والخمسين. فقد كتب في الفلسفة والمنطق والرياضيات والجبر والهندسة والكيمياء والفلك، وكتب أيضاً في التربية

والأخلاق والشعر والسياسة والطب وعلم الهيئة... وكان له جولات في علم الكلام والتصوف والإشراق.

من الثابت والأكيد أن لنصير الدين مؤلفات لم تذكرها المصادر، وهذه ربما قد تكون قد أحرقت في مكتبة ألموت الاسماعيلية... وعندما جاء إلى بغداد لم تسنح له الفرصة لإعادة تأليفها من جديد فمجهود ثلاثين عاماً لا يمكن إعادته في بضعة سنين خاصة عندما يكون المسؤول عن هذا المجهود ملتزماً بمهمات أخرى لا تترك له الفرصة للتطلع إلى جهة أخرى.

وممّا تجدر الإشارة إليه أيضاً أن كتباً عديدة أخرى نسبت إليه، كما إن عدداً من، مؤلفاته وقع في أيدي غريبة، فحوروها وأضافوا إليها فقرات وعبارات مخالفة لعقيدته وأفكاره... ممّا أصبح مستحيلاً على الباحث تمييز الخطأ من الصواب.

إن كل هذا يجعلنا نبادر إلى تذكير المهتمين والدارسين بأن الواجب العلمي يقضي علينا بإتباع طريقة جديدة لدراسة نصير الدين تقوم على أساس الرجوع إلى مؤلفات ابن سينا وخاصة الفلسفية منها لنرى الارتباط، ولنقارن بين الآراء والنهج والأصل، وعندما نفعل يكون من الأهمية بمكان قراءة كتاب «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا الذي اعتبر من أحسن ما كتبه، فهذا الكتاب وضعه في مصاف أعظم الفلاسفة العالميين، وعندما أقدم نصير الدين على شرحه والتعليق عليه

فإنه قد أضاف إليه من العلوم والمعارف ما جعل شروح فخر الدين الرازي، وابن كمونة لا قيمة لها. . ومعنى هذا إن نصير الدين كان عريقاً ومتفهمًا وضالعاً في الفلسفة السينوية التي ترجع بأصولها إلى الاسماعيلية.

إننا عندما نقوم بذلك، نكون قد أدينا ما علينا من واجبات للدراسات الاسلامية ولهذا الفيلسوف الكبير.

لقد ذكرت بأن مؤلفات نصير الدين الطوسي تمَّ إنجازها في الوقت الذي كان يقيم في ألموت فبعد هذا الوقت لم يضع لنا سوى كتاب أو كتابين، وقبل ذلك لم تذكر المصادر من كتبه سوى «أخلاق ناصري» الذي تحدثنا عنه، ووصفناه بأنه ثمرة من ثمار الفلسفة، أو نبراس للعالم وللدارس، والذي فيه عبَّر عن عقيدته، وأفصح عنها، وأثبت إنه ضالعاً بالكتابة عنها وفق ما تلقاه من دروس على أساتذة لا نشك إلَّا إنهم كانوا من أتباعها والعاملين لها.

لقد علمنا إن نصير الدين كتب العديد من كتبه في اللغة الفارسية، ولكن أهم ما كتبه كان في العربية، وقد ذكر إنه كان يجيد اللغة التركية وينظم فيها القصائد المعبرة عن عواطفه وشعوره وهذا بالإضافة إلى ما ذكر عن معرفته باللغة السريانية واليونانية خاصة والهندية، والمعنى إنه كان يقرأ الكتب والمصادر في هذه اللغات، ويطلع عليها من منابعها دون أن يلجأ إليها مترجمة وبهذا يتفادى أخطاء المترجمين التي كانت لا تعبر عن

الأصل ولا تؤدي المعنى الصحيح. . . وهكذا فعل ابن سينا في دراساته للتراث اليوناني والفارسي والهندي وغيره من الآثار التي كانت تتصدر الدوائر الفكرية في تلك العصور.

وكم يكون مفيداً، ونحن نتحدث عن هذا الموضوع أن نتوقف هنيهةً عند ادعاء الفرس بأن نصير الدين منهم، وهكذا قالوا عن ابن سينا. . . . فهذه الفكرة العنصرية التي لا تقوم على أساس ليس لها ما يبررها أو يدعمها، فابن سينا عربي الأصل والعرق. وهكذا نصير الدين، وكلاهما يتحدران من أسرة عربية هاجرت إلى بلاد فارس للقيام بمهمات دعائية وعلمية، وهذا ثابت تاريخياً وبعد هذا لا يصح أن نحسب كل من يقيم في أرض غير الأرض التي ولد عليها هو وأجداده إنها أرضه وإنه تلقائياً وجنسياً تابعاً لها.

ونعود إلى ما كنّا بدأناه عن نصير الدين، ولندرس نهجه في مجال الدراسة والتأليف والتعبير فمن الواضح إنه سار على طريق ابن سينا، أي إنه لم يكن ناقلاً للنصوص الفلسفية التي وضعها أفلاطون وأرسطو، أو إقليدس وأرخميدس وبطليموس وغيرهم من أساطين العلم والطب والرياضيات التي تبناها بعض العلماء الإسلاميين على علاتها دون فحص أو نقد أو تمحيص، فنصير الدين، وقد سبقه إلى ذلك ابن سينا، نقدها وبين خطأها وصوابها، ولم يترك شاردة أو واردة منها إلاّ وأفصح عن مدى واقعها. . . يدلنا على ذلك نقده لكتاب «المجسطي» كما.

ذكرنا، وتحليله لنظرية بطليموس في نظام الكون التي لم يتركها إلّا بأن أضاف إليها نظرية جديدة تتجلّى فيها السهولة، والقرب من الإفهام، وتدخل في حيثياتها حدود وأحجام وأبعاد بعض الكواكب.

وعند الحديث عن هذا الموضوع أراني مضطراً للإفصاح عن رأي احتفظت به فترة من الزمن، وهذا الرأي يتلخص بأن نصير الدين لم يدرس الدراسة الواجبة باعتباره فيلسوفاً، لأن اعتباره في أوساط الفكر، وفي الدوائر العلمية بأن كان من الفلكيين والرياضيين بالدرجة الأولى... أمّا الفلسفة فتأتي في الدرجة الثانية... وهذا الاعتبار برأي نجم عن إهمال هؤلاء دراسة فلسفته على حقيقتها ومنابعها والمدرسة التي تنتمي إليها.

فنصير الدين كان من إتباع المدرسة السينيوية التي تقول بالتوفيق بين الفلسفة والدين، بين العلم والعمل، بين الظاهر والباطن، بين المثل والممثول... فهذه المدرسة أرست قاعدة فهم الوجود وما وراء الطبيعة، ووضعت تفسيراً لنظام العقول، وما يتفرع عنه من أنظمة للعوالم الأخرى ولارتباطاتها ببعضها البعض في سلسلة من العلوم والمعارف لعب فيها مبدأ «التأويل» الدور الأول.... وكل هذا كان علينا أن نوليه إهتمامنا، وندرسه بموضوعية على ضوء الحقيقة والواقع.

فمن الثابت أن نصير الدين كان يولي الفلاسفة أهمية خاصة، وبعدهم علماء الفلك والرياضيين، فحافظ عليهم

وشجعهم ومنحهم المساعدات، بينما الفقهاء والمتصوفين ورجال الدين فجاء ترتيبهم في الدرجة الثالثة أو الأخيرة.... إنه لم يقصر عن مساعدتهم ومدهم، ولكنه لم يضعهم في صف الفلاسفة. وفي هذا الدليل على إنه كان فيلسوفاً، وليس رجل دين كما توهم البعض... فإيمان الفيلسوف لا يتم إلاّ على قناعة العقل الذي هو «المعلم» بينما رجل الدين يأتي إيمانه عن طريق التسليم... ممّا يجعل البون شاسعاً، والفرق كبيراً.

ولكي لا نذهب بعيداً.... نعود إلى ما كنّا بصدده، فنقدم كشفاً عن أعمال نصير الدين العلمية، وإنجازاته ـ الفكرية، وعن الخدمات والجهود التي بذلها لإحياء العلم ورفع مستوى العلماء، وقد يكون أولها تأسيس المكتبة الكبرى في «مراغة»... فهذه المكتبة بالرغم من إنها كانت تحت سلطة المغول، فإن الطابع العربي والإسلامي يبدو بارزاً على مؤسسة كان من أهداف الداعي إليها ضغط التراث من التبعثر والضياع بعد تدمير مكتبتي ألموت وبغداد... وقد عرفنا إن نصير الدين وجه عناية كبرى لإقامة هذه المكتبة، فجلب لها أقوم الكتب والمصادر من بلاد الشام وفارس ومن أي مكان، وغايته حفظها، وكان قد أوكل أمور تنظيمها ـ والإشراف عليها إلى علماء اختصاصيين أكفاء كابن الغوطي وغيرهم.

أمّا المجمع العلمي الذي ضمَّ أكابر العلماء والفلاسفة في ذلك العصر، فهو حدث جديد ليس له ما يشابهه إلاّ المجامع

العلمية اليونانية القديمة. وقد مرَّ معنا وقرأنا بأن نصير الدين قد سنَّ لمجمعه قانوناً خاصاً، وحدد الشروط للإنتساب إليه، كما رتَّب إجتماعاته الدورية، والمناقشات والبحوث الذي يترتب على الأعضاء طرحها للمناقشة، ولعلَّ هذا المجمع كان الوحيد في ذلك العصر، فعندما نعدد أعضاءه، ونستعرض شهرتهم وتفوقهم واختصاصاتهم فلا نتردد بإعطاء المزيد من الثناء لصاحب الفكرة الأولى.

أمَّا الأعضاء فهم:

«شمس الدين بن محي الدين» «ابن عربي»... و«كمال الدين» «ابن الغوطي» و«ركن الدين» «الاستربادي» و«نجم الدين» «الأسطر لابي» و«كمال الدين» «الإيجي» و«نجم الدين» «البغدادي» و«فخر الدين» «الخلاطي» و«حسام الدين» «الشامي» و«شمس الدين الشيرواني» و«أصيل الدين بن نصير الدين الطوسي»، و«صدر الدين بن نصير الدين الطوسي»، ومؤيد الدين «العرضي» و«نجم الدين القزويني» وفخر الدين «المراغي» ومحي الدين المغربي».

ومهما يكن من أمر... فإن إنحياز نصير الدين إلى هولاكو بعد تدمير دولة ألموت النزارية الاسماعيلية، قد مهَّد السبيل أمامه لتحقيق إنجازات كبيرة وخدمات عظيمة للفكر وللإنسانية، فكان أولها إنقاذ ما تبقى من الاسماعيلية بعد النكبة الكبرى، يضاف إليها حماية رجال الفكر في بغداد من

خطر المغول، وهكذا بالنسبة للشيعة وللمسيحيين، فإنه أنقذهم من الاستباحة والخراب والدمار. أمّا وقوفه من دمار بغداد واستباحتها وقتل الخليفة العباسي المستعصم فالحديث عن هذه المأساة ذو شجون وقد سبق أن تطرقنا إلى هذا الموضوع في الصفحـات السـابقـة... وعللنـا الأسبـاب..... ومن يدري؟... هناك باحثون ينفون مقتل المستعصم بتشويق من نصير الدين، ويرون إن هذه الفعلة لا تصدر فعلاً عن رجل له عقله وأخلاقه وتربيته، أمّا أن يكون هناك ما يشير إلى إنه قد سكت عن الحادث، فلم يدافع أو يحاول ثنيّ هولاكو عن هدم عرش المسلمين، فقد تبرره الوقائع والأحداث المؤلمة التي وقعت في ألموت، ومقتل الإمام ركن الدين وأسرته.

من جهة أخرى... فيجب أن ندخل في حسابنا بأن نصير الـدين لم يكن يعتبر المستعصم العبـاسي خليفـة شرعي للمسلمين. بل كان يحصر هذه الرتبة «بالفـاطميين» الـذين يتحدرون من أسرة الرسول الكريم، وربما كان هو السبب بوقوفه موقف اللامبالاة من كارثة بغداد.

لقد أثبتت المصادر التاريخية الكثيرة، بأن نصير الدين وجَّه إهتمامه بعد وقوع كـارثة بغـداد إلى إقناع هـولاكو بـإجراء إصلاحات عامة في البلاد تنسي الناس هول الكارثة، وخاصة إنقاذ التراث الإسلامي وإحياء ما ضاع منه، وفي هذا ما يدل على إن مهمته إنحصرت بإرشاد العباد وإصلاح البلاد وقطع

دابر البغي والفساد، وكل هذا يدخل في نطاق مهمته بخدمة الفكر والإسلام والإنسانية.

الفيلسوف الشاعر:

أثبت التاريخ أن بعض الفلاسفة الإسلاميين كانوا شعراء، يخوضون في بحار الشعر، ويتخذونه أداة للتعبير عن مشاعرهم وخواطرهم، وفي بعض الأحيان عن آرائهم الفلسفية... فالمعري والكندي وابن سينا، والرازي (أبو بكر) وغيرهم... ويأتي نصير الدين لينسج على منوالهم، ويسير على دروبهم.

فقد ذكرت لنا بعض كتب الأدب مقاطع من شعره الرقيق الذي يعبر فيه عن عقيدته وفلسفته هذا في العربية، أمّا في اللغة الفارسية فقد ذكر أيضاً إن له مقطوعات شعرية عذبة عبّر فيها عن موضوعات علمية وفلكية (خاصة)، وليس غريباً على نصير الدين أن يجمع الفلسفة والشعر، مادام إنه كان على مستوى رفيع من العبقرية ينشد الحقائق العالية للكون وللحياة وما وراء الحياة، وللوجود وما وراء الوجود.

ويأتي التاريخ ليصدق ما نقول مضيفاً بأن له كتاباً خاصاً في الشعر سمّاه «معيار الأشعار» تناول فيه فنون الشعر لدى الفلاسفة وخاصة لدى الفارابي وابن سينا وابن رشد، ولكن هذا المرجع الكبير لم يعثر عليه حتى الآن، وقد يكون قد فقد مع كتبه الكثيرة التي ذهبت طعمًا للنيران أبّان الغزو المغولي.

لدولة ألموت النزارية الاسماعيلية.

«ينابيع المعرفة لدى نصير الدين»:

قد يكون من العسير علينا، وعلى غيرنا دراسة عناصر المعرفة لدى نصير الدين إلاَّ . . على ضوء جدولٍ يبرز الموضوعات وفروعها وأصولها، ويظهر المؤلفات التي تركها وأقسامها وأجزائها، وهذا يفرض علينا الرجوع إلى دراسة هذه العناصر التي اعتمدها وهي كالتالي:

١ ـ العلوم العقلية والفلسفية: ويتفرع عنها: الأمور العامة، والجوهر والأعراض، وإثبات الصانع المبدع، «واجب الوجود» وصفاته . . . والنبوءة، والإمامة، ومعرفة العوالم، والمبدأ والمعاد، والتربية والأخلاق.
٢ ـ العلوم الكلامية: ويتفرع منها: السياسة والمنطق.
٣ ـ العلوم الصرفية: ويتفرع منها: الهندسة والجبر والرياضيات والمثلثات والفيزياء.
٤ ـ العلوم الدينية: ويتفرع منها: الفقه، وأصول الفقه، والحديث، والتفسير، والتأويل.
٥ ـ العلوم الفلكية: ويتفرع منها: النجوم والأفلاك والبروج، والرصد، والزيج، والتنجيم، والتقويم، والأسطرلاب.
٦ ـ العلوم الإنسانية: ويتفرع منها: التاريخ، والشعر، والموسيقى، والفنون، والتربية، والجغرافية.
٧ ـ العلوم الطبيعية: الطب، الجواهر، والكيمياء.

إنه لمن العسير على الباحث ـ أي باحث ـ أن يتحدث عن كافة الجوانب المتصلة بهذه العناصر جميعها، واعتقد إنه لا بد لذلك من وجود أو تخصيص جمعية علمية خاصة تتوزع الأعمال والمهمات وتتولّى التصنيف والتعبير عن هذه الينابيع الثرة التي كرس حياته لها، وخلفها للأجيال التي جاءت بعده.. على إن هذا لا يمنعنا من استعراض بعض هـذه العناصر وتقديمها:

«في التربية»:

وضع نصير الدين كتاباً في التربية، اعتبر من أقوم ما كتب في هذا الشأن... وهو كتاب «آداب المتعلمين» وقد ضمنه نظريات جديدة في التربية كان من المفروض عليه تطبيقها باعتباره المسؤول الأول عن المربين والمعلمين، وعن المدارس والمعاهد في دولة ألموت الاسماعيلية النزّارية، ويدخل في هذا النطاق مسؤوليته العقائدية عن الدعوة ونظام الدعاة الذين يتولون تدريس المستجيبين وتخريجهم وإيصالهم إلى المراتب العليا... ولا أذهب بعيداً إذا ما قلت إن كل هذا ذكره تلميذه «شمس الدين الطيبي» في رسالته «الدستور» التي سمعها منه.

ومهما يكن من أمر... فإن إخوان الصفاء ومن بعدهم ابن سينا أفردوا في كتبهم صفحات عديدة للتربية وأصولها

وقواعدها، وجاء غيرهم من العلماء الاسلاميين فقدموا النظريات الكافية عن التربية واعتبارها أثراً من آثار النهضة الانسانية التي تعبر عن الحضارة والتقدم، ومن الواضح إن أكثرهم اعتمد على النظريات اليونانية بعد أن اقتبسوا وأضافوا إليها ما قرأوه من كتب الأمم الأخرى، وما توصلوا إليه من اجتهاد وأفكار دلَّل على سعة إطلاع وخبرة ومعرفة.

إن ما قدمه نصير الدين في كتابه «آداب المتعلمين» يعتبر من الأهمية بمكان. . . . ففيه الناحيتين: «النظرية، والعملية، أو ما يسمَّى: التربية التقليدية، والتربية الذاتية.

فالأولى: ما يتعلق بالصلة التي تقوم بين المعلم وتلميذه. والثانية: عن العلاقة بين طالب العلم ومنهجه. . . ففي المقدمة تعريف عن ماهية العلم وفضله، وفي النية لتعلم العلم، واختيار المعلم والأستاذ والشريك، وفي الجد والمواظبة والهمة، وفي بداية السبق وقدره وترتيبه في التوكل، في وقت التحصيل، ثم في الشفقة والنصيحة، وفي الاستفادة، وفي الورع في التعلم، وفيما يورث الحفظ، وما يورث النسيان، وما يجلب الرزق، وما يمنع الرزق، وما يزيد في العمر وما ينقص. . . وأخيراً الخاتمة. . . . ولا بد من الإشارة. . . إن الذين أقدموا على نشر هذا الكتاب، لم يعطوا أية بيانات أو دراسات عن محتوياته وأبعادها، وتفسير ما ورد فيه من أفكار واجتهادات، وكأن مهمتهم إنحصرت فقط بتقديم النص القديم كما هو،

دون أن يكلفوا أنفسهم التعرض لوصف هذا الأثر النفيس. الذي على صفحاته تبرز أصالته وعبقريتهوعراقته في هذا العلم.

ومهما يكن من أمر... فإن نصير الدين لم يذهب بعيداً، أو يختلف كثيراً عن ابن سينا وإخوان الصفاء الذين قدموا فصولاً رائعة عن التربية، الخاصة والعامة... ولكن نصير الدين سبقهم عندما وضع كتاباً خاصاً مستقلاً عن الموضوع، بينما اقتصرت كتاباتهم على صفحات متفرقة في أمكنة عديدة من مؤلفاتهم.

«في الأخلاق»:

سبق لنا أن ذكرنا: إن نصير الدين وضع كتاباً في الأخلاق، عندما فاء إلى كنف «ناصر الدين» حاكم قهستان الاسماعيلي. وكتابه هذا المسمّى «أخلاق ناصري» قام على أسس ودعائم إسماعيلية.... ممّا يؤكد كما ذكرنا إنه تلقى علومه الاسماعيلية الفلسفية قبل وصوله إلى قهستان وكل هذا يبرهن ويعطي الدليل على إنه كان إسماعيلياً لحمًا ودماً أو بلغة أصح ولد إسماعيلياً.

وإنه لمن الغريب أن نقرأ بأن بعضهم يعتقد بأن ما جاء في كتاب «أخلاق ناصري» يأتي متفقاً أو مأخوذاً عن كتاب «الطهارة» لابن مسكويه، أو عن كتاب «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق»... إننا لا ننكر، ونتفق بالرأي مع هؤلاء

بأن ابن مسكويه كان صاحب مذهب فلسفي في الأخلاق، وإنه تأثر بآراء أفلاطون وأرسطو وجالينوس ومن بعدهم الآراء الفارسية والهندية، بحيث إنه مزج بينهم واقتطف منهم مذهباً خاصاً في هذا العلم.

ولكن كان عليهم أن يرجعوا إلى ما تركه ابن سينا وإخوان الصفاء في رسائلهم عن الأخلاق ويقارنوها بآراء نصير الدين، ولا أشك إلاّ إنهم كانوا سيعودون عن رأيهم.

فابن سينا في معالجته لموضوع الأخلاق يضع القواعد والأسس التي يجب أن يقوم عليها المجتمع الأخلاقي ليكون صالحاً وسعيداً، فالإنسان متفلسف في طبعه، وإنه منذ وجد يتساءل عن مركزه في هذا الوجود، وعن العلاقة التي يجب أن تكون بينه وبين إخوانه في الإنسانية. ويضيف على ذلك:

بأن لكل شيء في الوجود كمال... والنفس الإنسانية لها كمالها الخاص بها، وهذا الكمال أن تكون فاضلة يصدر عنها الخلق الطيب.... ويعرِّف ابن سينا الخلق بأنها ملكة يصدر بها عن النفس أفعال عديدة وقد يكون صدور هذه الأفعال عادة رسخت حتى كأنها طبيعية.. والخلق يصدق على الخلق الحسن... إذا كانت الأفعال الصادرة عن النفس حسنة، وعن الخلق القبيح إذا كانت بالعكس.

ولابن سينا رسالة في علم الأخلاق يذكر: إن الفضيلة وسط بين رذيلتين... وبيّن أصول الفضائل عن إن الأخلاق كلها

مكتسبة لا فرق بين الجميل منها والقبيح.

ويتكلم ابن سينا في رسالته عن السعادة كفرع من الأخلاق، وهذا هو بيت القصيد فيقول:

قد يظن بعضهم إن السعادة هي الفوز باللذات الحسيَّة والرئاسات الدينوية... فهذا لا يخلو من نقائص... لأن من يفكر فيها يصل إلى حد انقطاع السكينات الإلهية، ووقوف الفيض عنه.

أمَّا إخوان الصفاء فيتفقون مع ابن سينا ونصير الدين عندما يقولون:

إن النفس إذا فارقت هذا الهيكل فلا يبقى معها ولا يصحبها من آثار هذا الجسد إلاَّ ما استفادت من المعارف الربانية والأخلاق الجميلة الملكية والآراء الصحيحة والأعمال الصالحة، وذلك أن تبقى هذه الأشياء مصورة ومطبوعة في ذاتها وعند ذلك تظل فرحة بنعيمها ووجودها، وأمَّا إذا كانت أخلاقها رديئة وآراؤها فاسدة بقيت عمياء عن رؤية الحقائق وخفيت عليها المعرفة. ويضيفون:

فاعتبر يا أخي ما ذكرت لك، ولا تغتر بما أنت فيه من رغد العيش وصحة البدن وعشرة إخوان لك جسدانيين يريدونك لمعاونتهم على إصلاح البدن والحياة الدنيا، فإن قصرت عن معاونتهم أبغضوك، وإن تجلّدت عليهم جحدوك وإن علوتهم حسدوك، وإن قصر حالك شمتوا بك ولا

يريدونك إلاَّ لصلاح ونجاح أمورهم وحوائجهم. . . فهلمَّ يا أخي إلى صحبة إخوان لك نفسانيين وأقران لك روحانيين يريدونك ولا يأخذون منك ويخلصونك ممَّا وقعت فيه بأن تدخل في صحبتهم وتسمع أقوالهم.

إن هذا الجزء من علم الأخلاق الذي ذكرناه عبر عنه ابن سينا ومن قبله إخوان الصفاء، وكله يصب في حوض واحد، ونصير الدين أطلع وإني على ثقة من ذلك على كل ما أورده إخوان الصفاء في رسائلهم وابن سينا في كتبه العديدة لهذا فإنه جعل اعتماده على تلك الآراء القيمة، قبل أن يعتمد على ابن مسكويه وغيره هذا إذا صحَّ وكان ما ذكر بهذا الشأن صحيحاً.

أمَّا في السياسة. . . فنصير الدين وإن يكن قد اعتمد فيما أورده «على آراء أفلاطون في «جمهوريته» ومثله على الفارابي في المدينة الفاضلة، فإن اعتماده جاء واضحاً ومركزاً على آراء إخوان الصفاء في «دولة أهل الخير» وكيف يجب أن تبنى، وعلى من يجب أن تقوم. . . . ولعلَّ كل هذا فتح الباب عليه وجعل المتزمتين يتهموه «بالقرمطية» المتطرفة ذات المنحى الثوري الإشتراكي.

«في التصوف»:

في المشرق. . . وعلى الأخص في فارس نشأت هذه الحركة

الباردة المنعزلة ونمت وترعرعت، وتخرج من مدارسها العديدة المختلفة أعلام كان لهم أكبر الأثر في مجال الفكر، وفي إدخال مبدأ الغناء الهندي إلى قلوب الناس... وهي بالتأكيد موجات من الجمود الفكري والإباحية المستورة الخارجــة» عن واقع الإنسانية.... ولكن هؤلاء المتصـوفة لم يكـونوا من مـدرسة واحـدة... فللصوفيـة مدارس تختلف في المنهـج والسلوك والطريقة... وقد يتطور الاختلاف فيما بينهم، ويصل إلى حد النقاش والجدل أو تكفير بعضهم البعض.

وعندما نقرأ كتب الاسماعيلية الفلسفية نلمح فيها بعض الآراء التي هي من صميم التصوف، وقد تكون قد تسربت إلى حرم دعوتهم حينما كانت هذه الدعوة تعاني من ضغوطات سياسية كثيراً ما كانت تضطرها إلى التزور واعتماد «التقية» والمظاهر التي يتطلبها الوضع السياسي الراهن وسياسة الحكام المعادين التي كانت تقوم على البطش واضـطهاد كـل دعوة تقدمية في أفكارها ونظمها.

فلا غرابة بعد هذا إذا ما رأينا بعض فلاسفتهم ودعاتهم يخصصون جانباً من اهتمامهم للظهور بهذا المظهر، وهذا ما شجع الكثيرين على القول: بأن بعضهم كان ينحـو منحى الصوفية في كتبه، ومن جملتهم نصير الدين الطوسي وابن سينا والكرماني والسجستاني والرازي (أبو حاتم) والمؤيد في الدين وغيـرهم حتى ذهب المستشرق الكبيـر لويس مـاسينيون إلى

القول: بعلاقة الحلاّج المتصوف بالقرامطة الاسماعيليين.

ونحن نرى: إن هذا القـول لا يطبق عـلى الحقيقة... فالفلاسفة الاسماعيليين اعتمدوا على العقل أساساً لحركتهم ولنظامهم الفكري، فهو الدليل المعتمد للوصول إلى المعرفة وإلى الله... وهذا عكس ما يقوله الصوفييون الذين يعتمدون على الرياضة الروحية قائلين: إن الغناء وحـده هو الكفيـل بانتقال القـدرة الإلهية الكليـة في كيانهم الـذائب في الذات الأولى.

ولا يقف الخلاف عند هذا الحد... فالصـوفيون يهملون منهج العقل القائم على التحليل والتركيب ويأخذون بمنهـج التصوير العاطفي والرمز والإشارة، والاعتمـاد على أسـاليب الخيال كأساس في التعبير، وهذا لا يتفق مع آراء الاسماعيلية التي تـدعو إلى التعمق في التفكـير، وتحكيم العقل في كـل علم... وقد مرَّ إنهم كانوا يعرفون بالفرقة «التعلمية» أي التي تأخذ عن «معلم» وممثول المعلم لديهم هو العقل.

ونذهب، إلى أبعد من ذلك مذكرين: بأن المتـأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف توغلوا في اعتماد الخيال والوهم والغلو، فـذهبـوا في اعتقـاداتهم وراء الحلول، والـرؤيـة، والوحدة... ونحن لم يمر مُعنا إن الاسماعيليين قالوا بالرؤية، أو الحلول، أو الوحدة، حتى إنهم حـاربوا فكـرة التقمص ووصفوها بالإلحاد.

نحن لا ننكر إن بعضهم عالج موضوع التصوف، ولكن من رؤية خاصة تتفق ومبادىء عقيدتهم، أي إن اعتقادهم كان من وجهة نظر غير عملية، وبعيدة كل البعد عن آراء الصوفيين... ويتجلّى هذا لدى نصير الدين الطوسي، وقبله لدى ابن سينا وإخوان الصفاء.

وعندما ننفي نفياً قاطعاً أن يكون للاسماعيلية أي علاقة بالصوفية وبأعلامها وخاصة الحلاَّج والسهروردي وابن عربي... لأن فلسفتهم كانت في كل مراحلها ترتدي طابع الجدية والعقل كما قلنا، فنظامهم الفكري الشامل كان يدعو إلى ثورة فكرية تطيح بالمجتمعات الفاسدة، وإقامة دولة على إنقاضها تهدف إلى خدمة الإنسانية والسير بها في طريق التقدم والمثالية والخير. بينما الصوفية لم تخرج عن كونها حركة رياضية تقوم على الزهد والانقطاع والعزلة عن الدنيا ومشاغلها، والابتعاد عن كل ما يسمَّى سياسة أو دولة... فهذه عملت للتفريق بين العلم والدين... وتلك عملت إلى التوفيق بين العلم والدين.

إن كل هذا خفيت معرفته على الباحثين وخاصة على بعض المستشرقين، فذهبوا في تصوراتهم ودراساتهم إلى عدم التفريق بين مبادىء الفلاسفة، وبين رجال الدين وخاصة المتصوفين، ومزجوا بين العلوم العقلية، والعلوم الخيالية، حتى أدى بهم الأمر إلى هذا التردي الفكري الذي سيطر على بحوثهم

ودراساتهم عن هذه المواضيع.

لقد خصصنا قسمًا من كتابنا إلى التأكيد عن علاقة نصير الدين الطوسي بابن سينا وبإخوان الصفاء... أمّا علاقاته بالمتصوفين فلا وجود له في سجل حياته الفكرية... لأنه كان رجلًا يرتدي ثياب الوزير والسياسي ورجل الدولة، والعالم والفيلسوف، وهكذا كان ابن سينا، وهذا ما دعا له الفلاسفة الإغريق وطالبوا به لكل دولة متطورة.... ومن الجدير بالذكر إن نصير الدين وابن سينا لم يرتدِ أحدهما الخرقة البالية أو يحمل مجمرة البخور، أو يرقص على أنغام الطبول.

ومهما يكن من أمر... فإن قضايا كثيرة في تاريخنا وفلسفتنا ودراساتنا بحاجة إلى إعادة نظر ودراسة موضوعية وجلاء... على ضوء الواقع والتجرد والتعاون المثمر.

وبرأي:

إن أول ما يجب علينا عمله، عندما نقرر دراسة نصير الدين الطوسي هو العودة إلى النصوص الفلسفية الاسماعيلية التي ظهرت في هذا العصر، ومقارنتها بنصوص أخرى لفلاسفة إسلاميين آخرين لا تزال الأقوال تختلف عند التحدث عن عقائدهم، ومنهم نصير الدين الطوسي وابن سينا... واعتقد إن كل هذا يحتاج إلى المعرفة والاختصاص وإدراك أصول وفروع العلوم التي عبّر عنها هؤلاء في كتبهم ومؤلفاتهم.

إنني لم أزل من المعجبين برأي «ابن شاكر الكتبي» الذي وصف نصير الدين، وأشاد به بقوله:

إنه فيلسوف.... وهذا الوصف بالرغم من اختصاره، فإنه يعبر عن الحقيقة التي كان عليها نصير الدين، وبأن إنتاجه على العموم يشكل جانباً كبيراً من تراثنا الفلسفي.

وقد يكون هذا الرأي مؤيداً لما ذكره أحد الفقهاء المشهورين «ابن المطهَّر الحلي» الذي قال عنه:

وكان الشيخ الطوسي... أفضل عصره في العلوم العقلية... والمعنى بالعلوم الفلسفية وسمَّاه «آغابزرك».

أستاذ الحكماء والمتكلمين، أو أفضل الحكماء والمتكلمين، أو حجة «الفرقة الناجية».

وقال عنه الحراني:

أفضل المتأخرين.

وهناك من ذهب إلى حد القول عنه:

بأنه تجاوز في عمله الفلسفي أعمال سابقيه من الفلاسفة الكبار أمثال: الفارابي وابن رشد، وابن سينا.

ونحن مع تقديرنا لكل ما ذهب إليه هؤلاء المعجبين نعيد القول:

بأن نصير الدين لم يكن إلاَّ تلميذاً نجيباً متفوقاً لابن سينا،

ولإخوان الصفا الموسوعيين الاسماعيليين وإنه منذ صغره إستوعب فلسفتهم العريقة، ونهل من معينها، وسار على نهجها، وظلّ مثابراً حتى آخر ساعة من حياته.

فالحواشي والشروحات التي وضعها على كتاب «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا تعطينا الدليل الدامغ على سعة إطلاعه وفهمه للفلسفة السينيوية ولابعادها ومدلولاتها ورموزها، وتؤكد إنه الوحيد بين الشارحين الذي فهمها ووصل إلى أعماقها. . . وهكذا بالنسبة للكتب الأخرى التي تبحث في الالهيات وفي الوجود والمبدأ والمعاد والمثولات والطبيعيات وغيرها، ولا أستبعد إن هذا قد وقع موقعاً عاطلاً في نفوس البعض، فحاولوا التعتيم عليه، وتشويه معالمه عن قصدٍ، أو ربما يكون قد خرج عن نطاق إدراكهم، وهذا ما يدعونا إلى إعادة النظر، والخروج من دائرة التحجر العقلي، والإنطلاق إلى حيث الفكر الحر الرحيب، وحيث الكنوز الفكرية الدفينة التي تمثل وجه تراثنا وحضارتنا العربية الإسلامية.

بين
نصير الدين وابن سينا:

يقول الدكتور «علي أكبر فيَّاض»:

إن نصير الدين الطوسي. . . يعد من أكبر المستغلين بالعلوم العقلية بعد ابن سينا.

ويقول المستشرق «روزنثال».

«الفيلسوف والمتكلم الشيعي الهام الذي كان الممثل الألمعي لعقيدة الشيعة الإمامية ـ والناقد المتمكن لابن شينا».

في هذا الفصل من كتابنا لا نجري مقارنة بين فلسفة ابن سينا ونصير الدين، لأن المقابلة بين أستاذ وتلميذه لا يكون فيها أية فائدة خاصة عندما تكون الآراء متفقة ومتقاربة ونابعة من جدول واحد. . . . ولهذا سنقتصر على بيان العلاقة الروحية التي كانت تشدها رغم بعد الفترة الزمنية، وما هو مدى هذه العلاقة ومتى بدأت، ولماذا؟

إن صدور فلسفة ابن سينا عن الاسماعيلية، وبصورة خاصة عن الأكادميين الموسوعيين إخوان الصفاء أمر لا يحتاج إلى دليل أو بيان أو دفاع. . . وفي كتابنا الأخير عن [ابن سينا في مرابع إخوان الصفاء] عللنا وأثبتنا وقارنا بين آرائه الفلسفية وآراء إخوان الصفاء، وكل هذا كان في سبيل إثبات النظرية القائلة بصدور ابن سينا عن الاسماعيلية. . . وعليه فلا نقر الرجوع إلى هذا الموضوع، أو تكرار ما قلناه ونكتفي بالقول:

بأن صدور فلسفة نصير الدين الطوسي عن ابن سينا أمر لا جدال فيه، ولا تنفع فيه المحاولات ولا الآراء التي تطرح على بساط البحث. . . . فعندما نقول بأن نصير الدين الطوسي هو تلميذ ابن سينا، وابن مدرسته الفلسفية الاسماعيلية، فليس في هذا القول أية مخالفة أو خروج على الواقع. . . وقد كان

مفروضاً على الباحثين الذين درسوا الفيلسوفين أن يعوا هذه الحقيقة، وأن يركزوا عليها فيما كتبوه وعبروا عنه.

المصادر التاريخية تذكر:

بأن نصير الدين عندما التحق بحاكم قهستان الاسماعيلي «ناصر الدين» كان قد أتمَّ دراسته للفلسفة وأصبح ضالعاً ومتمكناً فيها... ولو لم يكن كذلك لما رأينا الحاكم المذكور يلح بطلبه ويدعوه إلى الإقامة بين ظهرانيه للمساهمة بالمجهود الفكري الاسماعيلي الذي كان ينتشر في كل مكان... وقد تجلّى هذا كما قلنا في كتابه الأول «أخلاق ناصري» الذي اعتبر الثمرة الأولى من شجرة نصير الدين الفلسفية الباسقة.

بعد هذا لم يبقى لدينا أي شك باسماعيلية نصير الدين، التي كما نراها لا تحتاج إلى أي دليل أو برهان، هذه الاسماعيلية التي غرست فيه منذ الصغر، وجعلته يتبع ابن سينا، متخذاً من فلسفته قاعدة وأصولاً لكافة أعماله الفكرية، ولكل ما حققه وكتبه.

لقد ذكرنا في كتابنا «ابن سينا في مرابع إخوان الصفاء»... بأن النظام الفكري الاسماعيلي أجاز للدعاة وللعلماء وللفلاسفة الذين ينتمون إليه أن يعتمدوا الاجتهاد، وأن يتصرفوا وفق مبدأ التحرر الفكري في كتبهم ومؤلفاتهم، على أن لا يكون لهذا التحرر أي مساس بجوهر العقيدة وأصولها... وقد مرَّ معنا إن بعض هؤلاء الدعاة أعطونا آراءً

فلسفية تختلف في نهجها وفروعها عن آراء أخرى قدمها غيرهم من إتباع النظام، ومن المتسبين إليه... وعندما نقول ذلك... لا يسعنا إلاّ أن نعيد إلى الأذهان القصة التالية:

ففي مطلع القرن الثالث للهجرة وضع الفيلسوف الاسماعيلي «النسفي» كتابه المشهور «المحصول» الذي اعتبر في الأوساط العلمية الاسماعيلية بأنه يمثل الأساس والأصل لهذه الفلسفة، وبعد فترة زمنية جاء الداعي الكبير «أبو حاتم الرازي» فوضع كتاباً سمّاه «الإصلاح» نقد فيه وأبطل بعض آراء سلفه النسفي مقدماً البراهين والدلائل على ذلك... وهذا النقد لم يرق للداعي أبو يعقوب السجستاني واعتبره مخالفاً ولا يتفق وما تعلمه، فوضع كتاباً سمّاه «النصرة» إنتصر فيه للنسفي على الرازي داحضاً بعض أفكاره... وأخيراً: جاء حميد الدين «الكرماني» فوضع كتابه «الرياض» الذي جعله ميزاناً وحكمًا بين الآراء الثلاث، ففيه نقد وأصلح ما رآه بحاجة إلى الإصلاح، ونثبت ما رآه صائباً وصحيحاً.... وكل هذا يعتبر دليلاً على الحرية الفكرية وعلى الانطلاق من القيود، واحترام الرأي، ومبدأ الاجتهاد... وغير خافٍ إن الدعاة الأربعة هم من مدرسة واحدة، وكانوا يعملون لنظام فكري واحد هو «الاسماعيلية».

فهل بعد هذا مجال للشك بانتماء ابن سينا ومن بعده نصير الدين الطوسي إلى الاسماعيلية وكلاهما خرج عن مبدأ

الالتزام، وأعطى لنفسه حرية الاجتهاد والتعبير واتخاذ النهج العلمي الذي رسمه لنفسه دون أن يسيء إلى جوهر العقيدة أو يشوه معالمها.

فعندما نرى ابن سينا يتخذ منهجاً جديداً، ويقدم آراء جديدة، قد يكون في مضمونها ما يختلف مع الآراء الاسماعيلية التي سبقته، فليس معنى هذا إنه كان على غير ما نتصوره من الانحراف والتباعد.. فكل هذا يدخل في نطاق التحرر الفكري وابتكار الأساليب الجديدة في التعبير.. واعتقد إن نصير الدين الطوسي إتبع هذه المبادىء وعمل لها دون أن يكون في عمله مخالفاً للمبدأ الأساسي الذي ينتمي إليه.

ممّا لا مجال للشك فيه... إن نصير الدين الطوسي يعتبر الفيلسوف العربي الأول الذي تبوأ هذه المرتبة وجلس على سدة بناء الفلسفة بعد ابن سينا. فالغزالي الذي تشبّع بالأفكار الاسماعيلية منذ الصغر لم يكن لديه الأعصاب والشجاعة لتحمل المصاعب والأهوال التي يتطلبها كل من يحمل إسم «الاسماعيلية»... فكان مضطراً أن يجامل ويضعف وينحني أمام الحكام، ممّا جعله خاضعاً لإرادتهم يقول ما يرضيهم وما يلاءم عقيدتهم دون أن يكون له من الجرأة ما يحمل على الإفصاح عن رأيه... من هنا فلا يمكننا مقارنته أو قياسه بنصير الدين أو بابن سينا، أو بلغة أصح فإن اعتباره فيلسوفاً.

أمر لا يتفق وما كان عليه، وعلى العموم فهو رجل دين أكثر ممَّا هو فيلسوف.

أمَّا نصير الدين... فكان له من الجرأة والإقدام ما جعله يعلن عن مبادئه وفلسفته منذ الصغر وفي الكبر دون أن يخشى أحد، ففي شرح كتاب الإشارات والتنبيهات، وفي المواضع التي تعرض الإلهيات والطبيعيات نراه لا يكتفي بالشرح والبيان بل يرمز إلى شروحات الرازي والضرب عليها واعتبارها لا تمثل حقيقة آراء ابن سينا.... أمَّا في شرح كتاب «القانون» فقد ظهر وكأنه من أساطين الطب، أو إنه الفيلسوف الذي يستفرق كل أبواب المعرفة والعرفان كأستاذه ابن سينا.

ومهما يكن من أمر... فإن ابن سينا اتبع طريقاً واضحاً في مزج الفلسفة وعلم الكلام مزجاً قام على أساس من المنطق، أو بما يمكن أن نسميه «التأسيس الفلسفي لعلم الكلام»، وجاء نصير الدين فيما بعد ـ لاستكمال التأسيس ورفع أعمدته التي لم يستطع أحد بعد ابن سينا أن يجول في ساحته، فأثبت أن بحوثه التي قدمها في علم الكلام إنما هي نابعة من السينوية.

وكما قلنا فإن تصدي الرازي لشرح أفكار ابن سينا لم تكن تقوم إلَّا على مبدأ تشويه هذه الأفكار ومخالفتها وإظهارها على غير واقعها... فالرازي تقمَّص شخصية العالم الذي يعمل للفصل بين الفلسفة والدين... فكان في تفسيراته مرة غير

واضح، وأخرى يظهر وكأنه لم يفهم أبعاد فلسفة ابن سينا... وعندما جاء نصير الدين الطوسي أثبت بأنه الوحيد الوارث للإرث الاسماعيلي الفلسفي الذي كان عليه ابن سينا أو الوحيد الذي يمتلك الموهبة للتعبير عنه، وسبر غوره وشرح رموزه وباطنه.

ومن الواضح... إن شروحات نصير الدين على كتاب الإشارات والتنبيهات حظيت بتقدير رجال الفكر والباحثين... فقد تداولها العلماء عند ظهور الطبعة الأولى في الهند سنة ١٢٨١ هـ. وعند إعادة الطبعة الثانية في الهند أيضاً، أو بعد انتقال الطبع إلى استانبول سنة ١٢٩٠ هـ. وإلى طهران سنة ١٣٠١ هـ. وإلى طهران مرة بعد ثلاثة أعوام... وهكذا للهند مرة ثالثة سنة ١٣١٨ هـ. وكل هذا شجع المستشرق «فورجت»: «FORGET» فوجه عنايته لطبعها في ليدن، وأخيراً طبع في القاهرة بإشراف الدكتور سليمان دنيا سنة ١٩٦٠.. ومن الملاحظ إنه ضمنها شروحات الطوسي والرازي معاً... مضافاً إلى أن الباحثة الإفرنسية «غواشون» «Goichon» ترجمت الأصل إلى الإفرنسية مع إشارة إلى شرحي الطوسي والرازي.

فهذا الاهتمام بهذا الكتاب لم يكن يظهر لولا رغبة الباحثين والمهتمين بدراسة الصلة التي تربط نصير الدين بابن سينا، ولكن هذه الصلة لم يفصحوا عنها تمام الإفصاح، بل ظلّت مقتصرة على قلة من الباحثين وعلى غيرهم ممن لم تكن لديهم

الشجاعة للدفاع عن آرائهم.

ممَّا يجب أن نذكره:

إن الصديق الباحث «حسين علي محفوض» أشار إلى نسخة مخطوطة فريدة للكتاب المذكور في مكتبة «المشكاة» التابعة لجامعة بغداد تعود إلى سنة ٦٧٢، ولعلها النسخة الأصيلة للكتاب الذي عرف إن نصير الدين قد فرغ من تأليفه سنة ٦٤٠ هـ.

ومهما يكن من أمر... فنصير الدين الذي نهل من ينبوع المدرسة السينوية منذ صغره، لم يقدم على شرح الكتاب إلاّ لإثبات انتمائه الفكري والعقائدي للمدرسة الاسماعيلية الفلسفية، وكأني به أراد إعطاء فكرة عن التيار المعاكس، وإظهاره على حقيقته بأنه لا يمثل الفلسفة، وليس له أي إتصال بها من جهة، ومن جهة أخرى ليدلل على أن العصر الذي كان فيه ما انفك يشكو من قلة الفلاسفة الذين يمتلكون القدرات والكفاءة لتبوأ مركز الفلاسفة العرب الأولين.

فالفلسفة أو أي فن من الفنون لا يكون خالداً إلاَّ إذا كان فارسه واسع الأفق، بعيد الخيال، وقريب من الموضوعية والعقلانية.

لقد رأينا أن هؤلاء وأعني بهم الأدعياء في وسعهم أن يتكلموا، ويخطوا على الصفحات الأقوال والأحاديث والمصادر

والكلام المنمق.... ولكنهم عاجزين أن يصلوا إلى مرتبة الفلاسفة. من هنا فإن ما كتبوه من نقد وتحليل لا يتعدى حدود الكلام السفسطائي الذي يروقك ظاهره ويحرقك باطنه.

وقد تكون العاطفة العشوائية المضطربة التي تثيرها النفس الجائشة بالأخطاء هي التي تتحرك تقف بوجه الحقيقة والخير والجمال.

إن الفكر الأصيل قد يستطيع أن يحول المادة المحسوسة إلى معانٍ حية مشرقة تحس وتتألم وتكشف الأستار عمّا وراء المضمرات والإلهامات... فمثل هذا الفكر نراه لدى الفلاسفة الخالدين... ولا نراه لدى بعض المتأدبين أصحاب الأقوال الجوفاء الذين يمسخون ويشدهون وينتحلون ويرجعون بالفكر إلى الوراء.

ولكن.... لا بد من زوال الزبد... فالجوهر هو المقدر له البقاء ولو بعد حين، رغم العواصف والظروف التي تهب عاتية بوجه علماء الحياة والوجود.

هذه الكلمات كان لا بد من قولها، ونحن في صدر التحدث عن هذا الفيلسوف الكبير الذي ترك في أسفار الفكر أقوم الآراء والنظريات وأغزر مواد العلوم والمعارف الإنسانية، والتي سيأتي يوماً توضع فيه في أعلى مكان محاطة بهالة كبرى من التقدير. فالخلود لا يكون إلّا للخالدين المتجردين الذين جاءوا

إلى هذه الدنيا ورحلوا عنها بعد أن أدوا الأمانة، وأعطوا الإنسانية كل ما يملكونه من قدرات وطاقات.

المحصّل والتجريد:

وننتقل بعد هذا لنأتي على موقف نصير الدين من كتاب «المحصّل» الذي طرح فيه «فخر الدين الرازي» بعض أفكار المتقدمين من الفلاسفة والمتكلمين، فنقدها نقداً قاسياً، وتصدّى لابن سينا فخصه، بأكبر قسط من النقد.

وعندما انبرى نصير الدين لوضع كتابه «تلخيص المحصّل» فإنه قصد تثبيت قواعد الفلسفة وإظهارها بمظهر يختلف عن مفهوم الرازي الذي نحا منحى علماء الدين في كلامه وجعله قائماً على أساس التوفيق بين الدراسات الدينية وعلم الكلام... وكل هذا انطلق من مفهوم بعيد عن الفلسفة، وخارج عن نطاقها كما يرى نصير الدين بل انطلق من أعماق شيخ كان هدفه الدفاع عن قضية دينية معينة لا تمت إلى الفلسفة بصلة، فالعداء للفلاسفة ومحاربتهم وإبطال آراءهم كلها كانت من مبادىء الرازي وربما سار الغزّالي على هذا النهج بالرغم من استيعابه للفلسفة، ولقواعدها وأصولها.

إذن فالبون شاسع بين ما يهدف إليه نصير الدين، وبين مقاصد الرازي، ولا يمكن المقارنة أو التشبيه.... فنصير كان يرمي إلى إحياء السينوية، وجعلها القاعدة الأساسية للفلسفة،

باعتباره ممثلها والمسؤول عن تعزيزها ورعايتها، بينما الرازي أخذ على عاتقه أبطالها وتكفير القائمين عليها.

لقد مرَّ معنا إن نصير الدين كان حريصاً كل الحرص، وأمين إلى منتهى الأمانة على الثروة الفلسفية التي ورثها عن ابن سينا... فهناك صلات روحية، والتزام ديني وعقائدي تجبره على اتخاذ هذا الموقف الدفاعي الذي يعتبره خدمة للفلسفة بوجه عام، وكما قلنا فهذا يختلف عن موقف الرازي وتطلعاته وأفكاره.

من المعلوم إن نصير الدين كتب كتابه «تلخيص المحصِّل» سنة ٦٦٩ أي قبل وفاته بأربعة سنوات، وبعد ثلاثين عاماً من رده على شرح الرازي لكتاب «الإشارات والتنبيهات».... والمعنى إنه كتبه بعد أن ناهز الثانية والسبعين.

وممَّا يدعو إلى الاستغراب إن الناس في تلك الفترة كانوا يعتبرونه من الشيعة الإثنى عشرية... ولا ندري بعد هذا ماذا نقول عن رجل إثني عشري، يتوجه لوضع كتاب هو من صميم السينوية والاسماعيلية؟ أفلا يستحق هذا الموضوع الاهتمام والنظر وإعادة التفكير في كل ما ذكر عن هذا الفيلسوف الكبير الذي ضاعت حقيقته عن الناس، في حين ظلَّت جليَّة لدى العارفين.

إن كتاب «المحصِّل» قد طبع في القاهرة سنة ١٣٢٣.... ولا بد من الإشارة إلى أن «ابن خلدون» الذي كان له الفضل بتعريف نصير الدين الطوسي في الأوساط العلمية في المغرب

قد كتب كتاباً سمَّاه «لباب المحصِّل» وقد ذكر إنه لُخص فيه تلخيص الرازي وتعليقات نصير الدين.... ومن الجدير بالذكر إنه توجد نسخة فريدة من هذا الكتاب في مكتبة الأسكوريال بمدريد.. واعتقد إن ظهوره وتحقيقه يلقي الأضواء على قضايا مجهولة نحن بحاجة إلى جلائها.

أمَّا كتاب «التجريد» ذو الحجم الصغير، فقد وصف بأنه من أقدم الكتب الفلسفية التي أنتجها نصير الدين الطوسي على الإطلاق، وخاصة في موضوع «الفلسفة الكلامية». التي دافع نصير الدين عنها وأرادها أن تكون خالية من الشوائب والزيادات التي تعمد أن يضيفها المتكلمون الذين هم في صراع دائم مع المدارس الفلسفية، وبمعنى أصح إنه توخّى من كتابه تعزيز مبدأ «تجريد الكلام» من الزيادات والشوائب، وتجريد الاعتقاد من كل ما من شأنه فساد أو إنحراف.

لقد ذكرت المصادر التاريخية إن نصير الدين فرغ من تأليفه سنة ٦٦٠ هـ. وقد ضمنه المواضيع الآتية:

في الأمور العامة.
في الجوهر والأعراض
في إثبات الصانع وصفاته
في النبوءة
في الإمامة
في المعاد

فنصير الدين عندما وضع هذه العناوين أساساً لكتابه، فقد أراد بالوجيز من القول أن يثبت إنها جوهر الفلسفة... وهنا فإنه ينفي ما ذكره البعض عنه بأنه يمزج الفلسفة بعلم الكلام.

إننا عندما نستعرض المواضيع المذكورة في كتاب التجريد، نرى إنها لا تخرج عن كونها مسائل فلسفية في الإلهيات والماورائيات وعلم النفس، وعالم الدين... وقد صدق ابن المطهر الحلي عندما وصفه بقوله:

«قد أوجز ألفاظه في الغاية، وبلغ في إيراده المعاني إلى طرف طرق النهاية حتى كلٍّ عن إدراكه المحصلون، وعجز عن فهم معانيه الطالبون».

إن ابن المطهر الحلي هنا يؤكد بأن شراح هذا الكتاب لم يستطيعوا إصابة الهدف بفهم معانيه ورموزه وإبعاد فلسفة نصير الدين العميقة... وجاء الأستاذ الخضيري ليؤيد ما ذهب إليه الحلّي فيقول:

«لقد وجدوا مقاصده على سبيل الألغاز... فقد تدل الكلمة منه على مسألة وتقوم الجملة المختصرة مكان الفصل... لذلك كثر شارحوه والمعلقون عليه منذ تأليفه حتى وقت قريب».

ومهما يكن من أمر... فإن كتاب «التجريد» يعتبر من كتب نصير الدين القيمة التي لم تدرس الدراسة التي تستحقها،

واعتقد إن مثل هذه الدراسة لا تكون ذات فائدة إلّا إذا شملت الرجوع إلى الأصل إلى الجذور إلى الصفحات العديدة من الكتب التي تكمن فيها فلسفة ابن سينا وعلوم إخوان الصفاء وغيرهم من أعلام الدعاة الاسماعيليين ظلوا في الذروة كقواد للحركة الفكرية وللفلسفة قروناً عديدة.

وغيز خافٍ... إن النظام الفكري الاسماعيلي قام على الفلسفة، وظلَّ النبع والمنهل... ولكن مع كل أسف فإنه لم يقدر ولم يدرس كما يجب أن يقدر ويدرس.

«رسالة إلى أهل الشام وجوابها:

في كتاب «الفيلسوف نصير الدين الطوسي» للدكتور عبد الأمير الأعسم ورد النص الحرفي للرسالة التي ذكر إن هولاكو بعث بها إلى أهل الشام، بعد أن تمَّ له اجتياح الدولتين الألموتية الاسماعيلية، والبغدادية العباسية... هذا مع النص للجواب عليها... ويذكر المؤلف إن هذا المصدر من مخطوطات مكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب ـ جامعة بغداد ـ رقم /٩٧٥/.

إننا مع تقديرنا لجهود مؤلف الكتاب التي بذلها وكرسها لتزويد القارىء بكل ما يتعلق بنصير الدين الطوسي وتاريخه.... وعندما نبادر إلى نشر الرسالة المذكورة والجواب عليها منقولة عن الكتاب الآنف الذكر لا يسعنا إلّا القول:

بأن هذه الرسالة مشكوك بصحتها، ولا يمكن القطع بأنها صدرت عن هولاكو، أو أن نصير الدين قد كتبها... فهناك ركاكة عباراتها، وتضمينها اللكمات النابيةالتي أجل نصير الدين من أن يستعملها في مخاطباته مع البلدان الاسلامية... مضافاً إلى ذلك فإننا لم نعثر في التاريخ على ما يشير إلى أن هولاكو كان يستعمل الإنـذارات الخطيَّـة أثناء فتـوحاتـه... وكيف والشام لم تكن تملك من القوة ما يجعلها في وضع بحيث تهدد أكبر فاتح غاشم بهذه العبارات.

إنني مازلت على رأي بأن غاية كاتب الرسالة كانت تنحصر بالإساءة فقط إلى نصير الدين وإظهاره بمظهر الرجل الوضيع المتآمر على الاسلام.

وهذه هي الرسالة والجواب عليها كما وردت:

«بسم الله الرحمن الرحيم».

«رسالة نصير الدين من قبل هولاكو إلى أهل الشام وجوابها منهم».

قلْ: اللهم فاطر السموات والأرض، الذي يعلم به «جمال الدين بكتمر» و«علاء الدين القيمـري» وسائر أمراء الشـام والأجناد.

إعلموا أنَّا حبذ الله، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حلَّ عليه غضبه، لا نرق لشاكٍ ولا نرحم عبرة باك... قد

نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل كل الويل لمن لم يكون من حزبنا.. قد خربنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد.

خيولنا سوابق، وناسنا خوارق، وليوثنا سـواحق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمـال، من رام سلمنا سلم، ومن رام حربنا ندم، فملكنا لا يرام، وجارنا لا يضام.

فإن قبلتم شرطنا، وأطعتم أمرنا كان لكم مالنا، وعليكم ما علينا، وإن أنتم خالفتم وأبيتم، وعلى غيكم تماديتم، فـلا تلوموا إلاّ أنفسكم.

الحصون بين أيدينا لا تمنع، والعساكـر لقتالنـا لا ترد ولا تدفع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع، لأنكم أكلتم الحرام، وأظهرتم البدع، وخنتم بالإيمان، وضيعتم الجمعة، وتنافرتم بالحسد والـطغيان.... فـاستبشروا [إذا استبـدلتم النفوس.....] بالمذلة والهوان. فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق، وبما كنتم تفسقون... وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وقد ثبت عندكم إننا كفرة، وحق عندنا إنكم فجرة... وقد سلطنا عليكم من بيده الأمور مقدرة والأحكام مدبرة... فعزيزكم لدينا ذليل، وكثيركم لدينا قليل، والأمن والخوف لمن هو بين أيدينا طويل... فإنّا ملوك الأرض شـرقاً وغـرباً، وأصحاب الأموال سلباً ونهباً، وآخـذون كل سفينـة غصباً،

فميزوا بعقولكم طرق الصواب، واسرعوا إلينا برد الجواب. من قبل أن تستعر الحرب نارها، وترمي إليكم شرارها فلا تبقي منكم باقية، وتضحي الأرض منكم خالية، وينادي عليكم منادي الفناء. فهل تحسبنّ منهم من أجاب أو تسمع لهم ركزاً؟

وقد أنصفناكم [إذ أعذر من أنذر، وأنصف من حذَر]... وسألناكم ونشرنا جواهر الكلام. والسلام.

«جواب أهل الشام»

قلْ: اللهم على كل شيء قدير، والحمد الله، والصلاة على سيدنا محمد النبي الأمي. [جواب] على كتاب ورد فجراً من الحضرة الخاقانية، والسدة السلطانية، نصر الله أشدها، وجعل الصحيح، مقبولاً عندها، وبأن إنكم مخلوقون من سخطه، مسلطون على من حلَّ عليه غضبه، ولا ترقون لشاكٍ، ولا ترحمون عبرة باكٍ... قد نزع الله الرحمة من قلوبكم، وذلك من أكبر عيوبكم.. فهذه صفات الشياطين، وصفتم به أنفسكم ناهياً وآمراً.

قلْ: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. ففي كل كتاب لعنتم، وبكل قبيح وصفتم، وعلى لسان كل رسول ذكرتم، وعندنا خبركم من حيث خلقتم، وأنتم الكفرة كما زعمتم... إلاّ لعنة الله على الكافرين.

وقلتم: إننا أظهرنا الفساد، ولا عز من أنصار فرعون من تمسك بالأصول، ولا يبالي بالفروع، ونحن المؤمنون حقاً لا يداخلنا عيب، ولا يصدنا غيب... القرآن علينا نزل، وهو رحيم بنا لم يزل، تحققنا، تنزيله، وعرفنا تأويله. إنما النار لكم خلقت، ولجلودكم أضرمت، إذا السماء انفطرت.. ومن أعجب العجب تهديد الليوث بالرتوت، والسباع بالضباع، والكماة بالكراع.

إن خيولنا برقية، وسهامنا يمانية، وسيوفنا مضرية، وأكتافها شديدة المضارب، ووصفها في المشارق والمغارب... فرساننا ليوث إذا ركبت، وأفراسنا لواحق إذا طلبت، وسيوفنا قواطع إذا ضربت، وليوثنا سواحق إذا نزلت... جلودنا دروعنا، وجواشننا صدورنا، لا يصدع قلوبنا تشريد، وجمعنا لا يراع بتهديد... بقوة العزيز الحميد اللطيف لا يهولنا تخويف، ولا يزعجنا ترجيف. إن عصيان قتلك طاعة، وإن قتلناكم فنعم البضاعة، وإن قتلنا فبيننا وبين الجنة ساعة.

قلتم: قلوبنا كالجبال، وعدونا كالرمال، فالقضاء لا يهوله كثرة الغنم، وكثرة الحطب يكفيه قليل الضرم. أفيكون من الموت فرارنا، وعلى الذل قرارنا الأساء ما يحكمون! الفرار من الدنايا لا من المنايا، فهجوم المنية عندنا غاية الأمنية. إن عشنا فسعيداً، وإن متنا فشهيداً، إلاّ أن حزب الله هم الغالبون. أبعد أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، تطلبون منّا

الطاعة؟ لا سمعاً لكم ولا طاعة! تطلبون أن نسلم إليكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء، ويدخل علينا الخطأ.

هذا كلام في نظمه تركيك، وفي سلكه تسليك، ولو كشف الغطاء ونزل القضاء لبان من أخطأ الكفر بعد الإيمان، ونقض بعد التبيان.

قولوا لكاتبكم الذي، رصف مقالته، وفخم رسالته، ما قصرت بما قصدت، وأجزت وبالغت. والله ما كان عندنا كتابك إلاّ كصرير باب أو طنين ذباب، قد عرفنا إظهار بلاغتك وإعلان فصاحتك، وما أنت إلاّ كما قال القائل: حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء.

كتبتَ: سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، لك هذا الخطاب، وسيأتيك الملك الناصر وبكتمر وعلاء الدين القيمري وسائر أمراء الشام ينفرون الإيصال إلى جهنم وبئس المعاد، وخرِّب اللحم بالصماصيم الحداد، وقل لهم: إذا كان لكم سماحة، ولديكم هذه الفصاحة، فما الحاجة إلى قراءة آيات وتلفيق حكايات وتصنيف مكاتبات، وها نحن في أواخر صغر موعدنا «الرستن» وإلاّ تعد بإمكان السلم وقد قلنا ما حضر والسلام.

للحقيقة وللتاريخ:

مؤامرات العباسيين على دولة «ألموت» الاسماعيلية حقيقة لا

ريب فيها، وقديمة ترجع إلى عهد «حسن الصبَّاح» مؤسس هذه الدولة، وإلى ما قبل ذلك بمئات الأعوام... فهذه الدولة عكَّر قيامها مزاجهم، وأقضَّ مضاجعهم، وجعلهم في كل مناسبة يحسرون عن وجوههم، ويخططون للقضاء عليها.

وفي المصدر التاريخي الذي ننشره الآن ما يؤيد الذي ذهبنا إليه، ويدعم تحالفهم السري مع المغول، ودفعهم للقضاء على دولة الموت الاسماعيلية.

إن هذا المصدر الذي ينشر لأول مرة ورد بنصه الحرفي في المصادر الأسماعيلية، وأيّده القاضي نور الله الشوشري من علماء الإمامية في القرن التاسع والعاشر من الهجرة النبوية في كتابه «مجالس المؤمنين». وهو كتاب: السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقي إلى حسن الصباح وجوابه عليه.. وكان ذلك في آوائل سنة ٤٨٣ هـ.

من السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقي إلى حسن الصّباح

«إنت يا حسن الصبَّاح أظهرت ملةً حديثة، وديناً جديداً تخدع به الناس وتغريهم على الخروج عن طاعة «ولي الزمان»... وجمعت نفراً من جهَّال الجبال تكلمهم على مقتضى طبعهم فيذهبون ويضربون الناس «بالسكين»...

وأنت تطعن في الخلفاء العباسيين الذين هم خلفاء الإسلام وقوام الملك والملّة، وبهم يوثق نظام الدين والدولة.

عليك أن تخرج من هذه الضلالة، وتترك هذه الغواية، وتقبل الإسلام، وإلاّ قد أعددت جيوشاً متوقفة على مجيئك أو مجيء جوابك... وعليك أن ترحم نفسك ونفوس تابعيك ولا تلقي بنفسك وبنفوسهم إلى التهلكة، ولا يغرنك إرتفاع قلاعك، فلو أن قلعتك «ألموت» هي برج من بروج السماء لهدمناها، وجعلناها سويةً مع التراب... بعون الله سبحانه وتعالى».

«جواب حسن الصّبّاح»

«لَمّا وصل الصدر الكبير «ضياء الدين خاقان» إلى هذه «الزاوية» وبلغني رسالة السلطان... عززت مدارها، ووضعتها على الرأس والعين.... ومن أجل تلفت السلطان إليَّ رفعت رأسي إلى فلك زحل فخراً وشرفاً.

والآن أظهر أحوالي واعتقادي، وأرجو من السلطان أن يصغي إلى كلامي ويفكر فيه الذين يعلم أنهم من أعدائي لاسيما «نظام الملك»، ثم ما يطبع في قلبه من كلامي، ويحقق ممّا أنا لا بد منه وليس عليه من مزيد... وإن رجعت أنا عن ذلك كنت كمن رجع عن الإسلام وعصى الله ورسوله.

أمّا إذا كان السلطان سيسمع كلام الأعداء، فلا بد لي أن

أسلم لله أمري، لأن أمامي خصم قوي يقدر أن يضع الحق مكان الباطل، والباطل مكان الحق... ويتفق مثل هذا كثيراً، وقد وقع هذا الحال في حقي كما لا يخفى على السلطان.

أمّا أنا:

فقد كان أبي رجلاً مسلمًا على مذهب الإمام الشافعي... ولمّا بلغت الرابعة من عمري أرسلني إلى المكتب لأشتغل بتحصيلّ العلوم والمعارف، وحين مضى أربعة عشر عاماً من عمري حذقت العلوم وخاصة علم القرآن والحديث، ثم لاح لي وجع الدين وألم المذهب، ووجدت في كتب الشافعي روايات عديدة في فضائل آل البيت النبوي صلوات الله عليهم... وفي إمامتهم... فوجهت زمام خاطري نحوهم وكنت دائمًا أطلب «إمام الوقت»... ولكن تكاليف حكام الدنيا جرني إلى أمورها... ومن أجل هذا نسيت جدي الأول، وشوقي الأمثل، وجعلت جلّ همي في أمور الدنيا وخدمة الخلق، وألقيت وراء ظهري أمر الخالق... ولمّا كانت هذه الحالة مخالفة لأوامر الله سلّط عليَّ الأعداء، فأخرجوني مضطراً... فكنت أفر من مدينة إلى مدينة، ومن مهمةٍ إلى مهمةٍ... ومن أجل ذلك تعبت كثيراً كما لا يخفى ذلك على السلطان، وخاصة حالي مع نظام الملك.

ولمّا نجاني الله تعالى من هذه الورطة سالماً، وعلمت أن التوجه إلى الخلق، والتنكب عن الحق لا يثمر غير هذا..

قمتُ في أمر الدين وطلب الآخرة، وسافرت من «الري» إلى بغداد، وأقمت مدة هناك، وعرفت حال تلك البلاد، وتفحصتُ حال الخلفاء وأئمة الإسلام، فوجدت الخلفاء العباسيين عاريين من حلية المروءة، وخاليين من مرتبة الفتوة، وقد علمت إن الإسلام والدين لو إنهما مبنيان على إمامتهم وخلافتهم فالكفر والزندقة أولى.

ثم ذهبت من بغداد إلى مصر وكان عليها خليفة الحق الإمام المستنصر بالله ففتشت حاله وقايست بين خلافته وخلافة العباسيين، وإمامته وإمامتهم، فوجدت إنه أحق بالخلافة منهم، فاعترفت به وبرئت في كل الوجوه منهم ومن خلافتهم.

ولمَّا أخبر الخلفاء العباسيين إني على هذه الحالة أرسلوا نفراً ليأخذوني في الطريق، ثم نجَّاني الله من هذه الورطة أيضاً، ووصلت سالماً إلى مصر، ثم إنهم أرسلوا مقدار حمل ثلاثة بغال ذهباً إلى أمير الجيوش «بدر الجمالي» بمصر ووعدوه بأموال كثيرة أخرى إذا سلمهم رأسي. . . ولمَّا كانت عناية خليفة الحق والإمام والمستقر المستنصر بالله شاملة نجيت من هذه الورطة أيضاً.

ولمَّا كلف الخلفاء العباسيين أمير الجيوش بالتخلص مني رشحوني للذهاب إلى الروم ودعوة الإفرنج إلى الإسلام، وبلغ هذا الخبر مسامع الإمام فرفضه وجعلني في كنفه، وأعطاني مرسوماً لدعوة الناس إلى الصراط المستقيم، وأعلامهم بإمامة

خلفاء مصر على حقيقتهم حسب علمي ومقدرتي.

فإن كانت في طالع السلطان سعادة «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» لا التفت إلى كلامي وقام على دفع شرهم عن المسلمين كما قام السلطان محمود غازي سبكتكين على دفعهم، وإلاّ سيأتي زمان لا يستطيع أحداً أن يتدارك هذا الأمر أو يدخِّر ثوابه لنفسه.

وأمّا ما قلتم إني أظهرت ديناً جديداً... فمعاذ الله... فأنا أدين بالدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله... وذلك هو الدين القيِّم إلى يوم القيامة... ديني هو دين الإسلام والمسلمين، وأشهد إن لا إله إلاَّ الله وأشهد إن محمداً رسول الله. وليسَ التفاتي إلى أمز الدنيا، وكل ما أفعله وأقول به يكون خالصاً ومخلصاً لدين الحق. وأعتقد إن أولاد الرسول (صلعم) أحق بخلافة أبيهم من أولاد العبَّاس.

فأنت بعد أن أرسلت جيوشك من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن محاذاة قطب الشمال حتى الهند حتى سلمت هذه الممالك لك، فهل ترضى أن تخرج من يد أبنائك.. وهم وقعوا في معرض القتل حيثما وجدوا، إن أنت ترضى بهذا فتكون خلافتهم أيضاً جائزة. على أن أبناء العباس فسدوا في الأرض فساداً لا تجوزه أمة، وما وقع مثله في ملة، ولئن كان بعض الناس يعتقدونهم ويعتمدون عليهم لعدم علمهم بفسادهم، فكيف اعتمد عليهم واعتقد بهم بعد العلم

بأحوالهم. . . . وإني لا أدري كيف يجيب السلطان الله يوم القيامة، وكيف تكون نجاته إن لم يقم على دفع شرهم، وإطلاع المسلمين على حالهم وما هم عليه.

أنا ما أظهرت ديناً ولا ابتدعت مذهباً لم أكن عليه قبل اليوم . . . مذهبي مذهب الصحابة في زمن الرسول (صلعم) وهذا صراطي المستقيم.

وأمّا ما قلتم. . . من إنني أطعن في بني العبّاس. . . فأقول: كيف لا يطعن ولا يُشنع بقوم قامت دولتهم على الفساد والفجور والتزوير. . . فهل يخفى على أحد ما فعلوه بأبي مسلم الخرساني الذي جدَّ واجتهد وتعب حتى أقام لهم دولة فقتلوه أخيراً وأراقوا دمه لأنه عارضهم في قتل أولاد الرسول الذين شردوهم في أطراف العالم وجعلوهم في زوايا الخفاء يتسترون من سيوفهم وظلمهم. وهل ننسى أوامرهم بضرب مائة سوط للعالم أبي حنيفة الكوفي الذي كان ركناً من أركان الإسلام، وكيف لا نذكر «الحلاّج» وصلبه؟ فهل هؤلاء هم أركان الإسلام وبهم قوام الملك والملة، وبهم يوثق نظام الدين والدولة؟ وهل في الطعن بهم جريمة يحاسب عليها المسلم؟

وأمّا ما قلتم من أنني أخدع الناس والجهّال فيضربون الناس أو يقتلونهم فأقول:

إن لا شيء للإنسان أشرف وأغلى من النفس، وليس كل

احد يقدر أن يقتحم نفسه في المهالك سيما بكلام شخص قليل البضاعة مثلي، وأنا لا أقدر أن أتصدى على منع الناس من الدفاع عن أنفسهم أمام الانحراف الواقع من قبل موظفي السلطان، ووكلاء (نظام الملك) الذين يتجاوز بعضهم على حقوق الزهاد وحرم العباد، فيقتلون النساء على مرأى من أزواجهم، ولا ينصفون في المعاملات الدينوية، وكلما استغاثوا بأركان الدولة فلا يلتفت إليهم أحد بل ينزل عليهم البلاء والظلم.

فهذا «نظام الملك» الوزير والرئيس... فقد اتهم أمس «أبا نصر الكندري» بالتصرف في مال السلطان وملكه فقتله، والحقيقة فإن أحداً لم يرَ أعدل من هذا الوزير المحبوب... فإن «نظام الملك» بعد أن فرغ من قتل أبي النصر ساهم بالظَلَمة وشارك بالسرقة... لقد كان أبا نصر في أيام وزارته يأخذ من الناس عشرة دراهم فيرسلها إلى خزانة الدولة، واليوم يأخذ نظام الملك خمسين درهماً بالجور ولا يرسل إلى خزانة الملك حتى نصف درهم بل يدفع منها سرقَته وظلَمته ويصرف الباقي في نفقة بناته وأبنائه وأصهاره وما صرف من أموال الناس في ابنيته ودوره أظهر من الشمس... أين أبو النصر من الابن والبنت؟ متى صرف دراهم الناس في أبنيته وبيوته؟

وليس للمظلومين في هذا الزمان ملجأً يفزعون إليه، فإن

قام أحد للإضطرار وآثر النار على العار وهانت عليه المنية تخلصاً من الذل والدنية ودفع واحداً أو إثنين من هؤلاء الظلمة، فما ظلم وإن قتلهم لمغرور..

ما للحسن الصبَّاح، وهذه الأمور، فهو لا يحتاج أن يخدع الناس، وأي أمرٍ يقع في الدنيا بلا تقدير سماوي.

وأمَّا ما قلتم: إن تركت هذه الأعمال... وإلاَّ نسير إلى تخريب مستقرك.. فأقول:

نعوذ بالله من أعمل شيئاً يكون فيه خلاف لرأي السلطان... أنا اخترت «زاوية» وجعلتها مأوى لي لأنَّ أعدائي يحتالون في طلبي ويسعون في دمي... فإذا فرغ السلطان من أمر الأعداء فأنا أقبل، إليه، وأتشرف بحضرته، وأنخرط في سلك سائر عباده وحينئذٍ أشير إليه ما استطعت في إصلاح أمر دنياه وتدارك أمر آخرته، ولئن صدر عني عمل بخلاف هذا أو خالفت أمر السلطان فأنا جدير بالتعيير وبالسب واللعن من القريب والبعيد وبأن يقال في حقي: هوَ خالف وحرم من سعادة «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، وإذاً عليك أن تكرم أعدائي وتقول في حقي ما شئت، وإن انا أغمض عن خصمي «نظام الملك» الذي ظلمني ويظلمني، وأقبل على حضرة السلطان، ولا شك أن يتابع الخلفاء العباسيين ولا مفرٌ له من أوامرهم وهم الذين احتالوا في طلبي حين سافرت إلى مصر ثم لم يعثروا عليَّ في الطريق

فأرسلوا نفراً أثري إلى مصر وأعانوا أمير الجيوش «بدر الجمالي» عليَّ، ولولا عناية المستنصر بالله الذي هو خليفة الحق لوقعت في هـذه المهلكة إلى أن جُرَّ الأمر بأن أرسلني أمير الجيوش مع الإفرنج إلى طريق البحر لأذهب وأدعوهم، ثم نجيت من هذه المهلكة أيضاً، وبعدما نزل بي التعب في مدة بضعة سنين، ذهبت إلى العراق، وهم لايزالون يحتالون في طلبي ويسعون في دمي . . . واليوم بلغت إلى هذه الرتبة، وأظهرت دعوة الخلفاء العلوية وحصلت على مستقرات في طبرستان وقهستان والجبال واجتمع إليَّ الأصدقاء والزملاء من الشيعيين والعلويين حتى وقع الخوف في قلوب العباسيين. . . فقد يغيرون رأي السلطان عليَّ ويسعون في قتلي، وقد يطلبونني منك، ولا يعلم حينئذٍ كيف يكون الأمر، وعلى أي حال لا يخلو هذا الأمر من القبح والشنعة، لأن السلطان إذا أجاب التماسهم فيكون قد خان الأمانة، ونقض عهده وخرج عن مذهب المروءة وإن لم يجبهم أطال لسان بعض الجهّال في حق السلطان. . . بقولهم:

كيف يقود السلطان فرس الخليفة ويحمل حُلَّه، ومع ذلك يحتفظ بحسن الصبّاح ولا يرده إلى الخليفة، ويحتمل أن تقع العداوة والبغضاء بين الطرفين، ولا يعلم إلى أين يجر هذا الأمر؟

وأمّا ما قلتم من أنه لو كان مستقري برجاً من بروج السماء لتجعله سوياً مع التراب فأقول:

إن لمقيم هذا المقر ثقة بقول محق الدهر: من أن هذه القلعة ستكون ثابتة في أيديهم مدة طويلة إلى أن يأتي قضاء الله بها.

أنا الآن أشتغل في هذه الزاوية بالفرائض والسنن، وأرجو من الله ورسوله، أن يهدي السلطان وأركان دولته إلى الصراط المستقيم، ويرزقهم دين الحق ليزهق فساد العباسيين، ويذهب ظلمهم من بين الحق... ولو كانت للسلطان سعادة الدين والدنيا لعمل كما عمل سلطان الإسلام محمود غازي رحمه الله فإنه قام على دفع شرهم وأتى بسيد علماء الملك «خِذاوند زادة» من ترمذ وجعله خليفة للناس، فعلى السلطان أن يقدم على هذا الأمر ويخلص المسلمين من الظلم.

والسلام على من اتبع الهدى.

كلمة في كتاب:

لا أستطيع في نهاية المطاف إلاّ أن أنوِّه مشيداً بما تضمنه كتاب «الفيلسوف نصير الدين الطوسي» للدكتور عبد الأمير الأعسم. الذي أخرجته دار الأندلس في بيروت ـ لبنان سنة ١٩٨٠ من آراء وأفكار ومعلومات، ممّا يجعلنا نعتبره ثمرة يانعة من ثمار الفكر، ومصدراً من المصادر القيمة.

لقد تمنيت من صميم القلب لو أن الباحث الكبير الدكتور عبد الأمير اعتمد الصراحة والجرأة في مواضع من كتابه، لاسيما وهو يعرف أن عصر «التقية» قد ولّى.

فالمجاملة والمداراة يجب أن لا تكونا العوامل لإخفاء الحقيقة.

إنني على يقين: بأن المؤلف يعرف أكثر ممّا نعرفه عن نصير الدين الطوسي، ولكنه كما يبدو من سياق حديثه كان ملتزماً

بمداراة طبقات من الناس لايزالون يعيشون في دنيا الأوهام والظلام.

ومع كل هذا فإن ما ذكرناه لا يمنع إعجابنا وتقديرنا لمؤلف الكتاب، كما لا يحول عن تقديم التهاني وعبارات المحبة.

الخاتمة:

لا بد من التذكير: بأنني عثرت بين المخطوطات الاسماعيلية السورية، على عدد منها وفي صفحاتها نتف وأقوال وشواهد للفيلسوف نصير الدين الطوسي... فضلاً عن مقطوعات شعرية منسوبة إليه.... وإني بدأت أعدُّ العدة لجمع هذه الأقوال والمنتخبات والمقطوعات تمهيداً لطبعها في كتاب على حدة يكون متممًا لكتابنا هذا، ولعلَّ ذلك يساعد على فهم فلسفة نصير الدين، وعلى ما كان عليه في صغره وفي آخر حياته.

«المصادر العربية ـ «المخطوطات»:

١ ـ فصول وأخبار «نور الدين أحمد» «مخطوط بمكتبتي . . كاتبه من القرن السابع للهجرة،١٠ صفحاته بالحجم المتوسط «٦١٧».

٢ ـ جملة مخطوطات اسماعيلية سورية.

«المطبوعات العربية»:

١ ـ الفيلسوف الشيرازي. . . منشورات عويدات ـ بيروت ـ لبنان ١٩٧٩

٢ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ ابن ابي اصيبعة

٣ ـ الاشارات والتنبيهات ـ سليمان دنيا القاهرة ١٩٥٧ ـ ١٩٦٠

٤ ـ تاريخ مختصر الدول ـ صالحاني بيروت ١٨٩٠

٥ ـ ابن الغوطي ـ الحوادث الجامعة بغداد ١٩٣٢

٦ ـ ابن قيم الجوزية ـ اغاثة اللهفان ـ القاهرة ١٩٣٩

٧ ـ المختصر في اخبار البشر ـ ابو الفداء القاهرة ١٨٦٨

٨ ـ الفيلسوف الغزالي ـ عبد الامير الاعسم بيروت ١٩٨٠

٩ ـ الذريعة الى تصانيف الشيعة ـ طهران [اغابزرك] ١٩٦٥

١٠ ـ مختصر تاريخ العرب ـ السيد امير علي بيروت ١٩٦١

١١ ـ اعيان الشيعة ـ محسن الامين بيروت ١٩٥٩
١٢ ـ كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ـ حاجي خليفة استانبول ١٩٤٣
١٣ ـ تاريخ الفلسفة في الاسلام ـ ترجمة (أبو ريده) القاهرة ١٩٤٨
١٤ ـ الطواسين «الحلاج» ـ لويس ماسينيون القاهرة ـ ١٩٤٨.
١٥ ـ اربع رسائل اسماعيلية ـ عارف تامر بيروت ١٩٧٩
١٦ ـ خمس رسائل اسماعيلية ـ عارف تامر بيروت ١٩٥٦
١٧ ـ تاريخ العرب (عصر الانحدار) اسعد طلس بيروت ١٩٦٣
١٨ ـ آداب المتعلمين (نصير الدين) نشره يحيى الخشاب (مجلة معهد المخطوطات العربية) القاهرة ١٩٥٧
١٩ ـ اخلاق ناصري ... لاهور ـ الهند ١٩٥٢
٢٠ ـ تراث العرب العلمي.. القاهرة ١٩٦٣ (قدري حافظ طوقان)
٢١ ـ فلاسفة الشيعة.:. عبدالله نعمه... بيروت.
٢٢ ـ مؤلفات ابن سينا... جورج قنواتي القاهرة ١٩٥٠
٢٣ ـ تاريخ العراق بين احتلالين.. عباس العزاوي ـ بغداد ١٩٣٥
٢٤ ـ تاريخ الفلسفة الاسلامية ـ هنري كوربان بيروت ١٩٦٦
٢٥ ـ ابن سينا في مرابع اخوان الصفا ـ عارف تامر بيروت [تحت الطبع]

ويضاف إلى هذه المصادر المجلات والمقالات والبحوث التي تحدثت عن نصير الدين وعصره وتاريخ تلك الفترة.

المصادر الاجنبية:

1- Arberry, A.J - Avicenna on Théology - london 1951.
2- Brockelmann. C. - Geschichte des arabischen - Leiden 1937
3- Browne-E, G. - A Literary History of petsia, Cambridge 1924
4- H. Corbin - art. (ishràq) Encyclo... of islam

5- Goichon A.H. - Livres des directives et remarques d'ibn-sina paris 1951
6- L. Massignon - La passion d'AL Hosain-ibn-mansour al Hallaj paris 1922
7- Minorski - Nassir Aldin - Tusi - B. S. O. A. S. London 1942
8- sarton. G. introduction to the History of Science - Baltimore 1948
9- Strottmaun. R. Tusi. Ency - of islam
10- Ivonow. W. Alamut - 1959

فهرس الأعلام

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(ي)

فهرس الأماكن والمدن

فهرس بأسماء الكتب

والمصادر

محتويات الكتاب

مؤسسة عز الدين

للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦-٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧ - ص.ب: ١٣/٥٢٥١ بيروت - لبنان